بلّه آدم باشر

صاحب الحقيبة الحمراء

-رواية -

من منشورات اتحاد الكتاب العرب
1998

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

قال الراوي... البارحة أكملت لكم قصة الشاعر ماهر البدوي الذي تخفى في زي بائع الأمشاط والمرايا ووقف تحت شرفة حبيبته الأميرة فينوس بنت سلطان الجزر الأربع.

نحن أيضاً كنا أربعة أشباح وخامسنا الليل حينما تكلم الراوي.. لقد قال: البحر كان يعلم ويبارك، والجزر الأربع والسماء، لكن الناس في تلك القلاع العائمة يكرهون الحب بل يكرهون حتى الشعراء.. وقالوا: قد أحبت شاعراً صعلوكاً لا يملك من حطام الدنيا غير خرج محشو بالكتب والكراريس.. فهل عجزت الدنيا عن أن تلد غير الشعراء.. الشعراء فقراء.. كلهم صعاليك، رأسمالهم هذه البضاعة الفاسدة التي اسمها الحب... وقال شيخ من بطانة السلطان –تجارة الشعراء كاسدة في البدء وبضاعتهم فاسدة منذ الأزل.

ومضى الراوي يقول، والليل لم يزل في أوله ونحن أربعة، والكون فقاعة كبيرة علمها عند علام الغيوب، ونحن أربعة.. لقد باح الليل بسر الهوى الفاضح وكذلك الجزر الأربع والسماء والبحر...

هل رآها بائع الأمشاط والمرايا في ذلك المساء.. لم يكن وجه فينوس مثل الوجوه، ولكنه الشوق النبيل إلى معانقة الكون بأسره.

وعيناها... رباه "هاتان لم تكونا عينين" ولكنهما النداء والصد، الإثم والغفران، الحياة والموت، وكان الشاعر البدوي يعرف تينك العينين وسر السماء المودع فيهما، شعرها كان ثملاً معربداً ومتعباً يود لو يستريح على كتف عاشق مذبوح.

www.alkottob.com

هل عانق خصرها ساعة بائع الأمشاط والمرايا... لم يكن خصراً ولم يكن كشحاً هضيماً، ولكنه مشنقة يتأرجح من تحتها جسد غريب.

فينوس يارفاق الظلام.. امرأة الفجيعة والموت، وأنثى النداء المحموم والعويل، وفي ليل الصبوات والسأم تلتقي بكر وتغلب وعبس وذبيان، وقلوع الشاعر البدوي نشرت فأبحر في الدماء، والحب... الحب هذه الفجيعة والحسرة، الحب والموت صِنوان في بدء الخليقة، والتقت بكر وتغلب وعبس وذبيان، الحرب في الجزر الأربع والغريم واحد والقاتل على مرمى البصر والمقتول واحد، وفي قلب الموت شاعر مضرج بدمائه ويتلو.. ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني... وبيض الهند تقطر من دمي.

لكن الرماح السمهرية ظمأى للدم الملوث بالحب... لله ما أغلى دم الشاعر العاشق لقد مات ماهر البدوي.. قتلوه تحت شرفة الأميرة...

في ساعة توقف فيها البحر عن المد والجزر، وليس في الغابات طير يغني، لا يسمع للنهر خرير، لقد توقف الكون عن النمو تلك الساعة الرهيبة من الزمان، لقد ضاعت أنفاسه عبر الأثير، تلك الأنفاس المضمخة بعبير الضفاف والأودية البعيدة، لقد طالما بثها لفينوس عبر تلك القصبة السماوية، وذلك الناي المغرد، الناي الذي لخص في أنَّاته أشواق الشباب وحزن المشيب..

ومضى الراوي يقص علينا ونحن ننصت خاشعين، لقد كان يتحدث بيننا، نحن جلوس، لكن صوته في الواقع كان يأتينا من مكان بعيد من فراغات هذا الكون.

قال:... لقد كان شاباً غريباً، يجوب ذاك الأرخبيل كلما أتى المساء،وكان وهو يدفع تلك العربة الصغيرة التي يبيع عليها الأمشاط والمرايا، لا يبدو عليه التعب ولكنه الحزن النبيل، حزن الشعراء، وذوي النفوس الكبيرة، كان على الدروب يرمي بثقل جسده الضعيف على العربة الصغيرة التي يدفعها فتبدو وكأنها هي التي تقوده إلى حيث

www.alkottob.com

تشاء وكان إذا نودي من تلك الشرفات العالية، توقف برهة ورفع بصره إلى السماء وحلق به في الآفاق كأنه يبحث عن وديعة في قبة الكون وكأن الصوت يأتيه من مكان ما من هذه القبة حتى إذا ما انتفض الصوت في طيف مليحةٍ تتسربل في حياء أنوثتها، باعها مالديه من بضاعة الزينة بلا اكتراث ثم مضى على الدروب.

كان ذلك شأنه، يوزع على الغيد المليحات تلك الأمشاط وهاتيك المرايا، بثمن وبدون ثمن، كان لا يسأل ولا يجادل في ثمن، إن أُعطِي أخذ بلا اكتراث وإلا فأعطى ومضى، لله ما أكثر المليحات في ذاك الأرخبيل، لكن مليحة واحدة ظل يحملها حزناً جميلاً بين الحنايا والضلوع، فكان إذا ماوقف تحت شرفتها وتطلع بعينيه السماويتين إلى ذلك المكمن الصغير الذي يشبه الهلال، تلك الأرجوحة الجميلة الناعمة المعلقة في فضاء القلعة حيث أطلَّت حبيبته أول مرة ورآها، في مساء كذلك المساء ومكان هو ذاك المكان، لقد رأى أول مارأى تلك الستائر الوردية الحالمة، كانت متدلية ومعقودة على جانبي الشرفة، لقد بدت لعينيه هذه الشرفة في ذاك المساء أرجوحة من أراجيح الجنة لا تمت بصلة إلى تلك القلعة المحضة التي تشمخ بقسوتها في فضاء الإنسانية..

وأطلت فينوس... كانت كائناً عذباً عذوبة صوت نايٍ متقطع يأتي من آخر الدنيا وأقاصي الكون. لقد كانت طيفاً حالماً كحقل من البنفسج والياسمين يفيق إثر يوم ماطر، ولفينوس جسد شفاف يعانق شفافية أرديتها عناق محموم.

وشاعر الأمشاط والمرايا كان ممسكاً بقصبة الناي وينفخ مفجوعاً حسرة آلاف السنين، هل كانت قصبة الناي تعرف أن أنفاسه آخر أنّات الشاعر المذبوح، هل كان المساء في تلك الفجاج يُشيِّع آخر الشعراء في صمت مهيب. لقد مات الشاعر البدوي، قتلوه تحت شرفة الأميرة فينوس.

عندما رأته ينفخ مزماره تحت شرفتها، وقعت تَسمع نشَّيج الناي،

www.alkottob.com

كان صوتاً حنوناً وشجياً كهمس لذيذ بجوار مدفأة في ليلة من ليالي الشتاء يعبث فيها الصقيع بنوافذ البيوت، وكانت أنفاسه المتقطعة المحمومة تتلاحق صعوداً إليها.. فاتكأت ومالت عليه حانية مسحورة، وانفلت شعرها من عقاله وهمى همى من أعلى الشرفة فضمخ الفضاء بعطر نفاذ ثم انسكب كالغيمة المنحلَّة على وجه الشاعر البدوي...

سبحان الله... هل رأيتم كائناً علوياً خرج على قيود الزمان والمكان.. هل علمتم عن كوكب حطم ناموس المدار وهوى في فج بعيد القرار، يارفاق الظلام، حريٌّ بالشاعر أن يقتل في ذلك المساء، فإنه لا يليق بالشاعر المتيم إلا أن يموت هكذا.

لقد قرأتم كثيراً من سير الحب ولا ريب، ولطالما تباهيتم أمام أقرانكم ومعشوقاتكم بأنكم تحفظون أسماء مشاهير العشاق ممن خلدتهم هذه الحياة، فهل تذكرون لي اسماً واحداً لم تكن نهايته مأساة..؟.. أنا أقول لكم... الحب العظيم هو تلك المأساة العظيمة التي تسمعون عنها ولاتعرفون عنها الكثير، وعزاء المحبين أنهم لا يرونها مأساة، فالعاشق العظيم هو الفاتح العظيم والبطل المغوار لا يرى في الحب إلا حرباً ضارية في صقيع سيبريا، فتراه حتى وهو يجود بآخر أنفاسه نبيلاً مترنماً.. ولم لا؟! فهو شهيد العاطفة النبيلة الذي سيذوب في فجر السماء السرمدي ولسوف يلتقي بمن أحب ومات.

ومضى الراوي يقص علينا نهاية الحكاية التي قصها علينا البارحة في مثل هذه الظلمة، لكن سمعي تمرَّد وكرَّ عائداً إلى قلبي مرة أخرى... وابتعد صوته شيئاً فشيئاً إلى أن تلاشى والتهمه الليل...

الليل موطن الصبوات والفجيعة، وفي غياهب الروح عواءٌ أليم، والقلب مفازةٌ يسكنها جارح الطير.

وفي نهر الطريق يسكن الليل، وعلى الرصيف غريب ينتظر، وتحت شرفة من شرفات المدينة يقتل ماهر البدوي. كان الشاعرالمقتول غريباً ومات بين غرباء هذا العالم الكبير، وأنا.. أنا أيضاً مسافر غريب، عبرت الصحراء مثلما عبرت البحر، لكنني تمرَّدتُ على

www.alkottob.com

الصحراء فأحببتُ البحرَ فكنتُ بذلك أول آبق صحراوي تمرد على أمه، لقد غضبتْ عليّ ولحقَتني لعنتها.. أنا البدوي المسافر وابن الصحراء العاق المحكوم عليه بالظمأ والحزن مدى الحياة..

أنا صاحب الحقيبة الحمراء، أسعى كمعظم دراويش العالم أتسول لنفسي مكاناً أقف عليه في طوابير الجياع.

وفي الربع الخالي من الكون.. فقدتُ بعيري وحملني السراب في تلك اللجة الحمراء، إلى حيث تستوي الحياة والموت، والأنوار والظلم، وعدوتُ في الفج العميق أطلب قطرة من ماء، رفعت عقيرتي المفجوعة إلى الطرف القصي من الكون أنادي.. وأنادي، لكن النداء ظل يتردد في تلك البقاع الموحشة من الكون..

أنا صاحب الحقيبة الحمراء... الغريب الذي أفرد لمركبه الشراع، ويوم رست مركبتي في مرفأ من مرافئ الدنيا، نظرتُ فإذا الصحراء والبحر يقتتلان وأنا بينهما كالذبيحة المعلقة كلاهما يقول إنه ملكي.. إنه لي وحدي دون سائر الوجود، رأيتُ البحر يلتهم الصحراء ورأيتُ الصحراء تلتهم البحر، كلاهما شرس ومخيف، وكلاهما قو لاحدود لجبروته... وأنا من أنا؟... مجرد كائن ضعيف من هذه الكائنات الحقيرة الصغيرة التي تدب على اليابسة أو تسبح في الماء، لكنني جزء منهما شئت أم أبيت... أنا الآخر بحر وصحراء، في داخلي بيداء لا حدود لآفاقها الموحشة، تنوح في أرجائها الغيلان والأشباح، وفي داخلي بحر مزمجر ليس له أول ولا آخر، سأفلت من حصار الصحراء، وسأفرُّ من أسر البحر، ولكن... هل أستطيع الفرار من ذاتي؟...

مصلوباً على جبين المأساة، وأنا البدوي الذي أضاع ناقته في الربع الخالي... حملت حزني على وعاء مملوء بالصدأ، وعند ذلك الرصيف المهجور من الكون ألقيته كما تلقى الزبالة القديمة لكنني ماكدتُ أخطو الخطوة الأولى عائداً حتى سمعتُ بكاء الرصيف فعدت مشفقاً على الرصيف المسكين وحملتُ زبالتي، فلما هبط الظلام حملته

www.alkottob.com

من جديد وقصدتُ ذلك الفج الغريب حيث النهر فوقفتُ على ضفته العجوز وسلمت عليه بسلام أهل الليل..

قال: من أنت أيها الظل؟

قلت: لا أعرف نفسي..

قال: ماذا تحمل في وعائك الصدئ؟

قلت: زبالة قديمة جمعتها من مزابل الحياة.. فلما تعبت منها وشقيت، جئت أرميها بين أمواجك يانهر...

قال لا طاقة لي بحزنك أيها الظل ولكنني سأعطيك عنوان الغابة.. وقال اقترب أيها الظل لأطبع علىشفتيك هذا العنوان:.... في الربع الخالي من السديم الثالث عند ملتقى الذكر والأنثى، والظلام والنور، والحياة والموت، والموت والحياة، والجهل والمعرفة، والجمال والجمال، والظل والشبح، والماضي والمستقبل، والإنسان والإله..

وأنا متوتر الأعصاب، مشبوب الشعور، معلق بين النداء والنداء، يملؤني الخوف والقلق، ويدق قلبي بسرعة عجيبة، أرى العالم كله وحشةَ ومتاهةَ عظيمة، وأراني طفلاً ضاع من أمه في زحمة الخلائق، فيا ضباب الشتاء... خبئني تحت جلدك واطويني كما يطوي الشراع واعتصرني نبيذاً المذاق ثم انشرني على صفحة المدى.. فأنا ياصديقي ذلك الشاعر الذي فقد الظل والنهر ومضى يحثو مسامَهُ ببارود القصيدة... أنا الدرويش المهرول ساعياً بين البكاء والبكاء... أنا ياصديقي ضيف العنكبوت..

وقالت الغابة.. منذ آلاف السنين كان يمر من هنا نهر، وأذكر أنك كنت صغيراً حينما كانت أمك الطيبة تحتطب من أشجاري اليابسة، لقد كان يحبك ذلك النهر لكنك لم تكن تعرف السباحة.. كنت شغوفاً بالجلوس على الضفاف، وكانت الصحراء منا على مرمى حجر.. أيه ياولدي.. لقد مات ذلك النهر، وكذلك تفنى الحياة.

ومضى الليل يمشي بخطاً ثابتة نحو غدٍ آخر وقافلة الزمان

www.alkottob.com

تضرب في وهاد السديم، وقال الليل... في مكان ما من هذا الخلاء الأبدي وعلى بعد ملايين السنين الضوئية من هذه الأرض، كواكب مبثوثة في فضاء لا نهائي مهيب، بعضها من ضخامة الحجم وهول المشهد مالا يحيط به الإدراك ولا يعلم أحد من أمرها إلا الذي فطر السموات والأرض وأحاط بكل شيء علما.

ومضى الليل يقول:.. كنتُ في بدء الخليقة أسافر عبر المجرات إلى تلك الجزر السديمية الهائلة فأكنس وحشتها ثم آتي بها إلى الأرض، وكنت أوزع الوحشة والهول على القلوب المشرئبَّة بأعناقها نحو السماء، كان ذلك دأبي وقافلة الزمان تمضي في مصبها المحزون، وقتها قالت الخلائق يأتي إله الشر، ولكنني لست إلهاً للشر كما أن الفجر ليس إلهاً للخير، ولكننا سفران من أقدم أسفار الوجود باركنا الله ربنا في البدء.. لقد فتحنا لأول الخلق آدم وحواء ونظرا في فصلٍ من صفحاتنا الكثيرة ولا زالت الأجيال جيلاً إثر جيل تقرأ في صفحاتنا وتحاول فك طلاسمها، في تلك الليلة نفسها تكلمت صورة الأنثى التي علقتها في غرفة نومي، لقد قالت: .. ستظل مصلوباً على وجهي أيها البدوي الحزين، فماذا تفتدي بربك؟...

وتكلّم شخص آخر يسكن في إهابي فقال:... إنه يفتديني أنا أيتها الأنثى المشاغبة، قالت: لكنني أنا العدم...قال: وأنا الوجود.

ومضى الرجل المحزون الذي يسكن في إهابي يسرد لليل وأكداس الظلام فصلاً من مأساة الحب والموت، والحزن والظمأ.

قال: .. في البدء كانت المرأة ضباباً في البحار المتجمدة وفي حقول العالم البارد الذي لا تشرق فيه الشمس، وكان الكون كهفاً من كهوف الصقيع، وأنا الغريب الذي يتجمد في البحار الميتة.. بحثت عن المرأة في كل صقع بارد وفي المغارات البعيدة وفي وادي العاصفة البيضاء... قابلني شيخ البطريق الكبير يقود سبعين حفيداً بين الشعاب المتجمدة.

قال سلامٌ أيها الإنسان الذي باركه الله في الأعالي، ثم ارتضاه

www.alkottob.com

خليفة على الأرض يحكم فيها حيث يشاء.

قلت سلام أيها الشيخ الوقور وبورك في نسلك الحميد.

قال عمّ تبحث أيها الإنسان في بقاع الزمهرير ووادي العاصفة البيضاء الذي ماطلعت عليه شمس سبعين عاماً.

قلتُ أبحث عن الفجر الرمادي في مغارة الضباب.. لقد خطف امرأتي أيها الشيخ الجليل وقيدها بالدخان المسحور في مغارته.

أومأ الشيخ لأحفاده فجلسوا على صخرة من صخور الجليد، ثم اقترب مني وأخذ بيدي فجلسنا على صخرة أخرى.

قال ياولدي... لقد خطف باريس العاشق هيلين الجميلة، فقامت الحرب الضروس وتدافع الأبطال في ميادين القتال، ثم صرع أخيل الشجاع هكتور الجبار واستلهم هومير ملاحم الأبطال والدماء التي تسيل في البطاح وفي الجبال فتغنى وشعر... للتاريخ ياولدي ذاكرة انتقائيّة، لقد خلد أشياء وغابت عنه أشياء: هل وقف التاريخ العجوز ساعة في هذي الوهاد المظلمة؟ في هذا المكان الذي تجمد منذ آلاف السنين؟... كانت سواكن العذراء راعية البجعات البيضاء، صدق ياولدي انها كانت من شفافية الماء الذي يسيل بين صخور الجليد... ونحن أطفال أشقياء تربصنا بها في فجر عيد الشمس المجيدة في واحدة من دوراتها السبعينية، نظرنا إليها ياولدي وهي تنضو عن جسدٍ مارأينا مثلهُ أردية الحضارة والأدب، عارية كانت والبحيرة تغفو على وسائد الفجر القدسي الذي ماطلع قبل سبعين عاماً في فجاج الزمهرير، ونحن صبية أشرار ياولدي رأينا حزمة من شعاع علوي يخصب جسدها فتوهج حتى الإشعال وخلناه سيتفجر... هل تراني أبالغ ياولدي؟! كلا والذي نفسي بيده.. لم يكن مشهداً مسحوراً فحسب، ولكنها الحياة في أعنف تجلياتها.

في ذلك المساء ياولدي.. عادت البجعات الصغيرة البيضاء ولكن سواكن العذراء لم تعد الغطاء الأبيض ينسحب بارداً على جسد

www.alkottob.com

الأرض، والناس في إرجائها القصوى والدنيا يتصارعون في فرح محموم وفي حزن محموم، يمشون في فرحة العيد غير أنهم يشيعون جسد الأرض إلى مثواها الأخير. تحت الغطاء الأبيض جسد مسجى مغمورٌ ببرود الفناء والموت، وفوقه وحواليه تمشي الحياة زاخرة إلى مصبها المحزون، والخلائق تسير لاهية تغني لأفراح الحياة وترقص مغتبطة بسحر الوجود وفتنة الدنيا.

ومضى الشيخ يقول... وانحدرت الشمس المجيدة في ذلك اليوم ومالت عن وادي العاصفة البيضاء ثم ابتلعتها اللجَّة، وشيَّعتها الخلائق عند الغروب وشيعوا معها سواكن العذراء راعية البجعات الصغيرة البيضاء.

ونهض الشيخ يتحامل على جسد واهن وكان قد بلغ من الكبر عتيا، ثم نهض من بعده الأحفاد ومضوا يشقون درباً في الجليد.

والليل مابرح يقود روحي نحو آفاق أكثر ظلمة ووحشة، ووحيد أنا وغريب في متاهات البرد والصقيع أمضى فتختفي عبراتي وتشنقني كلماتي.. وأنا الملاح اليتيم والعيون مرافئ مجهولة، في كل بحر منارة ومأساة وفي كل مرفأ علم للهداية وللضلال.

لقد قالت لي ذات يوم.. سأريح قصيدتك المتعبة بين دفاتري ولتكن لي نعم الذكرى، ويوم أعطيتها القصيدة توهمت أن أشتريها بلغة السماء وعاطفة الأعالي ولكنها ظلت تقول لي أنت أجمل ذكرى وستظل كذلك إلى يوم البعث، وأنا الحاضر أبداً في زوايا عينيها.. وضعتني تمثالاً رائعاً في متحف ذكرياتها الجميلة.

في اليوم الأول من عام مجهول في ساعة حزينة ومجهولة هي الأخرى، عرفتها وحفظت في خشوع الظلام اسمها، ودخلت معبد عينيها أصليّ.

في اليوم الثاني نهضتُ مع الشمس، ثم التقينا في منتصف الطريق، كانت قادمة لتعمل وكنت ذاهباً أبحثُ عنها.. أكان مفروضاً أن تأخذني في حضنها؟ هل كنت أجرؤ على اختطافها مثلما فعل

www.alkottob.com

باريس مع هيلين، أم تراني خليقاً بأن أموت تحت شرفتها مثلما مات ماهر البدوي تحت شرفة الأميرة فينوس، لكنها سلّمت عليَّ سلام الأغراب ثم طفقت تعمل لا مبالية بما يحدث في الكون.

في اليوم الثالث كانت منحنية في رداء أحمر شدَّته إلى وسطها بعنف فتأرجح جسدٌ إلى أسفل واشرأب جسدٌ إلى أعلى، وكانت تسوي مساكب القرنفل والياسمين والزنبق، ويوم اقتربتُ منها كنتُ أهذي وكانت تجهل ما أقول وكنتُ أجهل، نظراتها إليّ من تحت اللثام. لا أعرف من خارطة وجهها سوى عينيها.. العينان فقط هما اللتان أعرفهما فرأسها كان معصوباً بقبعة عمالية ووجهها كان يموت من تحت اللثام، لكن عينيها كانتا خنجراً مغروزاً في كبدي ومقصلة تدق عنقي ألف مرة كل يوم، كانت تعمل دائماً بانشراح غريب وأحياناً أسمعها تغني بصوت فيه أنوثة متحفظة وشجن كثير وكنت مسحوراً أترك عملي وأمشي باتجاهها مشي نائم يتبع في موهن الليل قبيل من الجن، وكنت أمر قربها مرور رجل لا يعرف كيف يستميل إليه النساء، لكنني كنتُ أتخبط في الحديث خبط عشواء، وكنت أهذي بأشعار أحفظها وأخرى أرتجلها في حينها وكانت تحس بأنفاسي لاهبةً تسوط جسدها، لكنها كانت حبيسة انفعالات لا أعرفها، وكنا عالمين مختلفين يفصل بينهما خلاء أبدياً ليس له أول ولا آخر.

كنت لا آراها إلا منحنية على مساكب الورد، وعندما تنتصب قامتها لحظة.. كنت ألمح في عينيها فرحاً يولد ويموت في ثانية.

وأنا الآتي من كوكب الذكرى، من تلك المدن النجمية البعيدة التي تدور حول الشمس.. فارقتها في اليوم الرابع وحملت حقيبتي الحمراء الحزينة ذات ليلة تنوح في أرجائها الريح وسبحت في نهر الطريق عائداً أو ذاهباً لا أعلم.

حفظتُ في اليوم الأول خارطة جسدها وكانت ترتدي تنورة مخططة طولياً بألوان كثيرة أذكر من بينها خطوطاً زرقاء وصفراء فاقع لونها.

www.alkottob.com

في اليوم الثاني جاءت صباحاً في كوكبة من البنات، لكنها كانت ترتدي فستاناً أسود وكانت تمشي على استحياء.

اليوم الثالث كان الفستان الأسود نفسه، وكان بالياً وجميلاً حتى الفجيعة والموت، وفي اليوم الرابع كان بلون البنفسج وكان زلقاً عندما تمشي أو تنحني أو تنتصب، رأيتها فيه وتخيلت مابداخله وبكيت في تلك الليلة كمثل الذي يبكي لأول مرة واستيقظتْ في داخلي ينابيعُ الحزن والنشيج وتأوَّه الليلُ والجبل وحقل القرنفل والزنابق والخراف التي أطعمها الشعير وأسقيها الماء، والدجاجات التي أبعثر لها الحب صباحاً ومساءً حتى الكلاب الثلاثة التي تشاطرني المسكن نبحت في تلك الليلة نباحاً ممضاً ومفجعاً لكن تلك العيون مابرحت تراني من تحت القبعة وفوق اللثام، وظللت أنا بين تلك الرموش وتلك الضفاف.. غريباً يسير في قافلة الزمان.

وكنتُ حاضراً مادمت خارج عينيها، لكن ما إن أدخل فيهما حتى أصبح ذكرى يغمرها تراب الأبدية ولحظةً مندثرة كمثل بريق النيازك التي تحتك بغلاف الأرض.

أصحيح أن آخر الصحبة الفراق...؟

العيون ينابيع أحلامنا في فجرها الأول... ذلك الفجر الكاذب، لقد طلبناها ونحن ركب القافلة المشؤومة، وكان ذلك في عام الظمأ العظيم وعام الحزن الجليل.

لقد كان بيننا وبين العيون خلاءٌ أبديٌّ مسكون بالجن والعفاريت وأشباح الظلام، يومها تذكرنا أن شيخ الخلوة في الحي القديم قد قال:"إن الأرض لا تطوى إلاّ لصالح أو نبي... لكن الفقيه الذي درسنا القرآن لا يعد طلب العيون من الصلاح في شيء.

وأنا صاحب الحقيبة الحمراء... ظامئ وردتُ لعينيِّ صاحبة

www.alkottob.com

القرنفل والزنابق وظامئٌ صدرتُ من عينيها.. فارقتها كمثل يوم حطَّتْ ركابي في حقلها، ومشيتُ أطلب عيناً أخرى لفراق آخر، ووطناً جديداً للتقى، وألماً عظيماً للتواصل مع روح الكون...

وقال الليل: "... ركاب المحطة الأخيرة حتماً سينزلون، ويبقى السائق المنذور للطرقات وحده ولكنه معي... رواد الحانات التي تتوارى بين شعاب المدينة في حياء، حتماً سينهضون مترنحين، تفوح من نواصيهم رائحة الشراب، وفي قلوبهم قلق الحياة والهَّمُ الذي ينزلُ مع نزول الشعاع الأول..لكن ساقي الحانة العجوز يبقى وحيداً وكسيراً غير أنه معي.

ومضى الليل يقول... أفق الحياة طيف امرأة شهية التكوين، ثم تبخرت وانقشع الطيف.. كانت تحمل في خبايا نفسها وعلى ضفاف عينيها بذرة فنائها... نعم أيها الأشباح الذين تظنون أنكم أحياء... كلكم موت وهلاك، كل واحد منا يحمل في داخله بذور الفناء. جاء من أقصى الكون صديق، وغاب من داخل النفس صديق، ولد في الليل طفل وعند الصباح مات شيخ، قطاران في سفر دائم لكل منهما وجهة مجهولة، قوافل وأمتعة وركاب، نساء وشيوخ وشبان، مال وبنون، غناء و حداء وشعر وعلوم وفلسفة كلها محطات للسفر.. أقسم أنها محطات لقافلة الزمان في سيرها الحثيث نحو مصبها المحزون..

***

وأنا صاحب الحقيبة الحمراء والمقلة الدمعاء...

اليأس في الآفاق القاصية والدانية، في بلاد الحر وبلاد الصقيع، وعلى الصحراء وعلى البحر، في المحيط المتجمد والمحيط المذاب، في ليالي الشتاء والزمهرير والمطر، ورياح السموم والقيظ المحموم في الصيف.

والحب على الصواري وفي القلوع التي أفردت ذاهبة.. وفي القلوع التي لاحت مع اليم عائدة في مرافئ المدن البعيدة التي ندخلها في آخر الليل، في فنادق الترف وعلى (البلاجات) وفي مناخات

www.alkottob.com

المترية.

ونحن غرباء.. لم تستقبلنا الحدائق بالدفوف والزغاريد، لا ولم تطلق في سماواتنا نوارسها الجميلة... لقد لثمت فتياتها فَصِرنَ كجيشِ يوسف بن تاشفين...

ونحن غرباء.. كانت قلوبنا قلاع محصنة، لكن الحصار كان طويلاً جداً والزاد كان قليلاً جداً وعلى كل بابٍ حصان طروادة، فما لبثت قلاعنا أن سقطت وداهمها الطوفان، غرباء كنا في الشعاب وعلى الدروب، نسير حيثما طاب لنا المسير وننام حيثما طاب لنا النوم.. وحيثما بركت الناقة في مناخها المحتوم.. أنزلتُ رَحْلَها وبركتُ بجانبها.. وأنا المسافر الغريب... مناخ ناقتي مناخي..

وعلى كل دربٍ فتاة ملثمة، وفي كل حقلٍ قرنفل وزنابق، والعيون ضفاف المأساة وينابيع للحزن القديم، والحب في كل الشعاب فصل من فصول الهزيمة والانكسار وفي مدن النوارس الجميلة.. ميدان للحب، بيد أنه ميدان إسباني أو "فورم" رومي قديم... والعاشق مصارع ثيران وحشية، ومنظر الدم الملوث بالحب يُسرِّي عن أكابر القوم وأبناء النعيم الذين أضناهم الرقاد الطويل بين ملاحق السعادة والعيش الخضيل...

في البدء كان الحب... وكانت الأرض عذراء، في البدء كان أبونا آدم وأمنا حواء وقيوم السماوات والأرض بداية البدايات ومنتهى النهايات.

وفي البدء كانت الخطيئة وأول الذنوب والآثام.. لقد تكبر إبليس ثم كفر.

في البدء كان السفر، وكان الاغتراب ورحلة الإهباط من الجنة

www.alkottob.com

الخضراء.

ونحن أغراب وعصاة... درجنا في الأرض مخرّبين ومعمّرين، مفسدين ومصلحين كافرين ومؤمنين، أقوياء ومستضعفين، ملوكاً وصعاليك، أغنياء وفقراء، علماء وجاهلين، عاشقين وكارهين، عقلاء ومجانين.

وللتاريخ عين لا تنام، وقافلة الزمان تسير، وبين البدء والمنتهى أحلام وأشواق وفكر وعلم كثير، والحلم يندثر، والشوق يندثر، والفكر يندثر، والعلم يندثر، وماتبقى من شبح الإنسان يسير في موكب الأشباح العظيم إلى النداء الأبعد...

***

قال شبح الطفل الذي كنته ذات يوم.. الكون لم يتسع لنا نحن الإثنين، فتبعت قافلة الإنس التي كانت تضرب في عمق السديم، وخلفتني وراء ظهرك أعوي بين أودية الجن، قلت للطفل الذي كنته ذات يوم.. تبعتُ القافلة من بيداء إلى بيداء ولاحقتها في كل سهل ونجد بين الأحراش والأدغال، أواه ياطفلي الذي كان.. كانت القافلة تشق الآفاق مسرعة، وكنتُ على أذيالها أعدو مستوحشاً بين غابات تلك الوعور.

ياطفلي الذي كان.. في فجاج الأرض هلع وخوف عظيم، وللروح عويل واستغاثة في تلك الوعور، وبكاء ممض ومفجع، تجفل منه الوعول في كناسها الممنعة، ويفر منه مذعوراً قسورة الأجمات البعيدة، وتثور من روعها براكين البحار، وتنَّهد من وخشتة الأهرامات والجبال.

قال الطفل.. لقد كنتَ مسرعاً فلم نخبر الوادي الذي خلفتني فيه، لقد مسّك السراب المسحور فطفقت تلاحقه ولا تلحقه في الخلاء الأبدي الوسيع، لكنني لا أعاتبك أيها الكبير فذلك شأن الكبار دائماً، إنما أنا جئتُ لكي أحدثك عن الوادي.. ذلك الوادي الفسيح الذي خلفتني فيه... أمازلت تحس برعشة العشب الثمل الذي استيقظ مع الفجر الأول أم أن شعوراً باليباس والذبول يلتهم منك المدارك.

www.alkottob.com

أمازلتَ تذكر تلك الغيوم.. الغيوم المجنحة التي تسبق فصل الخريف، أم تراك نسيتها كما نسيتني وأنكرتني لأول وهلة.. الغيوم المجنحة لا زالت مَظّلةُ وادينا، ولا زلنا نغني لها أغنية الظل والحر، والدعاء رسول المطر الأول وحامل لواء الغد المجيد يأتي مشبعاً بريح الأرض التي شربت فارتوت من طلائع المطر الأول، يأتي برداً وسلاماً من الضفة المرتوية إلى الضفة العطشى، يأتي عبيراً ومسكاً من الضفة المخصَّبة إلى الضفة البتول. والأرض رحم مبارك... أودعته الطبيعة ذات ليلة، سرها الأقدس، واكتمل السر العلوي في تلك الليلة ثم كان المخاض.

فلما أقبل الصباح وترجل كالملاك فمشى على التلال، وعلى السهول والبطاح، ومراكب الشمس خيول مطهمة بيضاء، وشفافية النور أيقظت كل حيّ دب في ذاك الخلاء، وضعت الأرض مولودها البكر، وكان طفلاً ليس كمثله طفل في العالمين، وسرى النسيم يعُبُّ من ترف المياه، ثم ينشر الأطياب في قمم الحراز وعلى السيال، بين أفياء التبلدى واللالوي وجلال المها وفي والابنوس..

طيور القمري على نواصي النخيل وسفوح الصنوبر، تسجع ماطاب لها السجع وتبارك مولود الحياة.

وترجل الطاووس في زهو البتول، ثم مشى على الضفاف كالمليك في موكب جم الفتون.

يارفيق الأمس.. لقد مشت الخلائق بأجمعها في الفجر الأخضر ومولد الوادي الجديد، وأقبل شيخ الذئاب في رهط من بني جنسه، ثم التقوا بقطيع من الضأن والحملان الوديعة، غنى شيخهم أغنية الذئب الوسيم الذي أحب نعجة جميلة فتبتَّل في العشق حتى الجنون، وعلى أنغام أغنية الشيخ.. راقص كل ذئب نعجة حسناء ثم خاضوا في الحب أيُ خوض، وسقوا القوافي من كل حوض.

www.alkottob.com

أتذكُرُ الأرانب الصغيرة الملونة..؟ لقد شببت بوسامة الثعلب، فأسرعوا لقطف الورود الحمراء، وقدم كل ثعلب لأرنبه المحبوب وردة حمراء، ثم تماسكوا، فما من شاب من شباب الثعالب إلا ويُرى في ذلك الصباح متأبطاً ذراع صبية حسناء من صبايا الأرانب.

لقد مشت الأُسْدُ بجانب الحمرُ الوحشية وابتسمت لها في رقة ليس كمثلها رقة. يارفيق الأمس... لم تزل الظباء في وادي النعيم، ترد الجداول ثم تصدر للمقيل بين أفياء ظل رحيم.

وعصافير الجنة في كل دوحة خضراء تغني في نشوة العناق الأول مع الأرض وسحر الوجود..

***

والليل موطن الصبوات والفجيعة.. وفي غياهب الروح وبين أدغالها وشعابها المعتمة، يربض الغول الذي حُدثْنا عنه في ليالي الخريف الداجية.

لقد مضت تلك الليلة الخريفية وتلاشت كمثيلاتها من ليالي الحياة. لقد حزمت أمطارها المتنافرة كمثل وقع الحوافر على أرضٍ يابسة، وقادت مراكب الريح إلى حيث العدم. ولكن الحكاية المأسورة ملّتْ قعودها في كهف ليلة الخريف،وعندما خرجت من الكهف فرت إلى صدر أمي.. وكانت تجلس إلى النار جلستها الدافئة تلك.. إيه ما أبعدها، كانت لنار الحطب الموقدة في صحن اللَّدايا علاقة حب عظيم وود حميم بأمي وبالبيت وكل العائلة وكانت الرَّاكُوَبهْ مكان العائلة الأقدس، فيه دفء النار ودفء الأم ودفء العائلة، أحببتها مثلما أحببتُ أمي، وكانت ينبوعِ الحكاية الأولى.

وقالت النار في صحن اللَّدايا.. بردٌ وسلامٌ يا أم العيال، مبارك فيه الجبين المزهر، والبطن التي تلد، والثدي الذي يرضع، والقلب الذي

www.alkottob.com

منح أول الحب وأول الحياة. باسم الله الذي بارك فيك سهر الليالي على الولد الحبيب، لك الحب آناء الليل وأطراف النهار آمين.

وقالت أمي.. أصل الحكاية ياولدي أن الغول كان يحب ست البنات الجميلة الحسناء ذات النون، وقيل والله أعلم في سبب تسميتها بذات النون أن صدغيها كانا معقربين فسبحان من صورها في أحسن صورة.

للغول ياولدي سبعة رؤوس وكان يصور هيئته كيفما شاء، كان يأتي في صورة إنسان أو بقرةٍ أو حمار، كان ينتحل صور المخلوقات جميعاً وكان الناس في تلك البقاع يخافون منه خوفاً عظيماً وكان ليلهم موحشاً وطويلاً، وأكثر خوفهم كان على الجميلة ذات النون لأنه كان متربصاً بها في كل مكان وزمان.

لقد فرَّ بها أهلها ياولدي، لكن الغول الشرير ظل يلاحقهم من أرض إلى أرض، وعندما ملّوا الفرار من وجه الغول، قالوا نُزوجها لابن عمها وضاح.

فلما علم بمكرهم، مكرَهو الآخر، فتحول جملاً ما شهدت تلك البوادي كمثله بياضاً وحسناً، كان لونه كلون البرد، وعيناه سوداوين وعميقتين كمثل هذه الليلة، وكان يرد العين التي تشرب منها إبل القبيلة، فلما رأوه قالوا تالله مافي الإبل التي نملكها أكرم من هذا الجمل، فمن أين جاء..؟..

ويوم الزفاف ياولدي.. تخاصموا عليه، فمن قائل نذبحه، فإن له سناماً كالقبة الرومية، ولحم لاشك أنه طري ودسم، ومن قائل بل نطلقه فحلاً فإن أصله طيب وكريم، ولسوف نرزق من صلبه نوقاً عتاقاً كعصافير النعمان ملك الحيرة.

فلما اشتد الخصام، وانتشر في تلك البوادي اللغط وشين الكلام، أقبل والد العروس، وكان شيخاً ذا مهابة ووقار فانصتوا له خاشعين، قال ياجماعة الخير، هذا الجمل الأبيض دخل في مراحي أنا دون سائر العالمين، وأُعجبتُ به ابنتي ذات النون، وقالت: "يا أبتي (والله

www.alkottob.com

مايوضع هودجي إلا على هذا الجمل ذي الأصل الكريم، أولا أدخل على عريسي هذه الليلة)، فقلتُ لها يازينة البنات قرِّي عيناً فو الله ماكنتُ لأخالف لك أمراً، وليس عندي في الدنيا أعز منك ياذات النون.

فتفرق الجمع ياولدي وقد أذعنوا لرأي الشيخ الوقور.

فلما أقبل الليل ياولدي.. أسرعوا إليه فرسنوه وقادوه إلى مكان العروس، وأُنيخَ في قلب الساحة ذلك الجمل الجهم الكبير، وعيونه أضحت حمراء كنيران ذلك الفريق، وكان باركاً في قلب الساحة كجبل من جبال الجليد، حملته قدرة الرحمن إلى ذلك الفج البعيد.

لقد أضمر في نفسه الشر ياولدي وكان متجهاً برأسه الكبير إلى الخيمة التي فيها الصبايا وفيها ذات النون عروس البادية المفجوعة.

وأقبل جمع من نساء الفريق يحملن هودجاً فوضعنه على ظهر الجمل، وقلن هذا للعروس، ثم غُطيَ الهودج .بالِكدَانة وفرشت عليه المفارش، وزيَّنه بالزقاف المصنوعة من جلود الظباء، وطوقن عنق الجمل الأبيض بالعَقّادْ، وكان مرسوناً برسن الدير، ثم وضعت على رأسه القَنْبارْ، فتبارك الرحمن ياولدي...

لقد أقسم كل من حضر ذلك الزفاف، إنه ماشهد منظراً كذلك المنظر البديع، وعندما أُخْرِجَتْ ذات النون في جوقة النسوة اللائى كن يرقصن ويغنين ويزغردن ويضربن على الدفوف... كانت كالبدر في أوج اكتماله فسبحان خالقها.

حنّوا قدميها ويديها ياولدي.. وأبدعت أيدي المواشط في شعرها الناعم الطويل، وتلك الخدود ياولدي ألهبها الحياء والطيب فاحمرت حتى أضحت كالتبر المذاب. ثم مشت كالملاك بين الناس، ثم حملوها وأدخلوها باطن الهودج، فَبَشَّر الرجال وزغردت النساء.

لقد بنوا لهما بيتاً في ناحية من نواحي الفريق، ووضاح العريس كان في أيدي رفاقه من شباب القبيلة يزينونه لليلة الموعودة، وضاح الفتى.. كان ياولدي أبلج كالقمر أو ليلة من ليالي السمر، فلماتحرك

www.alkottob.com

ركبه مع الشباب يطلب ذلك البيت، وتحرك ركب ذات النون مع النساء والأطفال والشيوخ، لاح جمعه ولاح جمعها، فهللوا وبشروا، وارتفعت الزغاريد وعلا دق الطبول.. وتلفت الغول يميناً وشمالاً ورفع عقيرته بصوت كالفحيح المشؤوم، بُهت له الناس فغشي عليهم، وادْلَهمَّ من وحشته المكان، ثم مرق كالسهم على أعقاب الطرائد، وفر بذات النون إلى باطن الوعر.

ويظل يتناهى لمسمعك لحن شجيٌّ من بعيد.. والموسيقى تستبي الأرواح في الليل.. وقالت الألحان.... أنا الفجرُ الأخضر وأضغاثُ أحلامِ العالم الحي، أنا شهوة الاندماج في روح الكون.

منذ فجري الأول نزلت من عالم الملكوت الأسمى، ودرجتُ في الأرض أمشي وحيدة ومستوحشة ثم جلستُ على دربِ الخلائق، ذلك الدرب الأزلي الذي تمرُّ منه الكائنات.

في البدء.. مر من أمامي الطفل الذي ملك الأرض، جاء يركب العنقاء بنت الريح، وعندما حطت أمامي ونزل، بدا طفلاً سماوياً بهي المنظر، وسعى يركض نحوي حتى ارتمى في حضني فضممته إلى صدري بقوة، وقبلت مفرقه وزرعتُ شفاهي في كل عين وعلى كل خد.

وعندما أراد الرحيل، أدخل يده الصغيرة في جوفه ثم أخرج قطعة بلون الغسق وناولني إياها وقال: خذي مني يا أماه فليس لدي أعز منها، وليس لدي أعز منك، والعزيز للعزيز عطاء، وعندما طارت به العنقاء وبسطت أجنحتها في الفضاء، أخذتُ أقلبُ القطعة الصغيرة التي أعطانيها، فوجدتها مزماراً ياللدهشة... مزمار صغير مصنوع من القصب. وطفقتُ ياصاحب الحقيبة.. أنفخ في ذلك المزمار، وأعزف ألحاناً غريبة تسللت عبر مسام الكون، فسمعتها الكائنات في عمق البحار والصحارى والجبال وعلى السهول وفي كل فج من فجاج الحياة، ثم هرعت تسعى إلي وكنتُ جالسة فوقفت، لقد كان مشهداً من تلك المشاهد التي لا تحيا مرتين، وكان الكون في أبهى تجلياته تلك...

وتقدم مني فتىً في عمر الشباب، فأودعَ في يدي حلمه ثم

www.alkottob.com

مضى.. وتقدمت مني فتاة بكر "بتول" قالت: سلام يا أماه.. قلت سلام يا ابنتي العذراء...

قالت : سأودعك سراً يا أماه.

قلت... إنما تودع البنت سرها في قلب أمها، عندها وضعت في يدي سرها ومضت تمشي على استحياء...

وسعى نحوي كهل وقد خالط بياض شيبه سواد شعره، فوقف بين يدي وقال.. أيتها الأم الرحيمة والسيدة الكريمة، ها أنذا أودع فيك سكوني فاحفظيه يا أماه... ثم وقفت بين يدي سيدتان، وقد بدا عليهما الإعياء والانكسار وقالتا بصوت واحد احفظي لنا يا أماه هذا الحزن النبيل... قلتُ ماشأنكما يا ابنتيَّ، قالت إحداهما... مات زوجي في الحرب، وقالت الأخرى: طلّقني زوجي بعد عِشْرَة.

ونظرتُ فإذا شيخ قد بلغ من الكبر عتياً يتقدم نحوي ببطء، فلما وقف وقوراً وهادئاً أمامي، بادرت فسألته ماوديعتك أيها الشيخ الجليل؟.. قال خذي هذا الجدول أيتها السيدة المباركة فهو جدول أحزاني ودموعي.. سألتك بالله أن تحفظيه لي في مكان أمين.

ياصاحب الحقيبة، في تلك الساعة دنا مني المجنون.. واقترب من شبحي حتى خلته سيقع على صدري، عند ذلك احتواني بعينين فيهما من الرحمة والشجن مالا يوصف وقال: يا أماه... فقلت لبيك ولدي وأبَرَّ نسلي وأحبهم إلى قلبي.. قال في الغابة العذراء التي لم تطأها قدم أنس من قبلي أدركتني سنة من النوم، وعندما استيقظت ياأماه، كان البحر مني على مرمى حجر وكذلك الصحراء، وتنبهت فإذا بالقرب مني ينبوع ماء، ورأيتُ سرباً من طير غريب حط بجانب ذلك الينبوع وقطيعاً من الغزلان والوعول والحُمر الوحشية كانت تقترب مطمئنة، وكنت أشعر بالظمأ يا أماه... رأيتُ كل هذا فانفتحت شهيتي للشراب أنا الآخر، ودنوتُ من ذلك الينبوع وأنا أمشي على مشطي قدمي في توجس وحذر مخافة أن أفسد على تلك الكائنات الوديعة

www.alkottob.com

لحظتها الرائعة تلك، ولكنني ذهلتُ يا أماه حينما اقتربت منها ولم تجفل مني أو تبدي أي ذعر بل كانت في تلك السكينة التي رأيتها فيها من بعيد، فجلست لكي أشرب ثم أتوضأ فأصلي، فماكادت يدي يا أماه تلامس سطح الماء حتى سمعتُ صوتاً كأنه وشوشة النسيم في أذني يقول لا تشرب من هذا الينبوع أيها المجنون، وإذا أردت أن تشرب فعليك أولاً أن تذهب إلى أقصى الغابة العذراء فستجد هناك ثلاثة ينابيع، ستجد على الأول شجرة تين وهو ينبوع الحكمة فاجلس خاشعاً واشرب حتى ترتوي، فإذا ما ارتويتَ انظر أمامك فسترى شجرة زيتون مباركة فامشِ إليها حتى تصلها فإذا وصلتها تجد هنالك الينبوع الثاني وهو المعرفة فاستو قاعداً في خشوع واشرب حتى ترتوي فإذا ارتويت انظر أمامك فسترى شجرة سيال فاقصدها حتى تصل إليها فإذا بلغتها وجدت هناك الينبوع الثالث وهو ينبوع الحزن النبيل فاستو جالساً أيها المجنون واشرب في خشوع الظلال حتى إذا ما ارتويت انظرأمامك واطلب شجرة النخيل حتى إذا وصلتها وجدتَ هذا الينبوع الذي أنت فيه الآن واشرب حتى ترتوي، فإنه الينبوع الرابع والأخير، ينبوع الانعتاق.

قالت: ياصاحب الحقيبة... مضى المجنون يقص والكون في لحظة إصغاء غريب، قال:يا أماه... عدوت إلى أقصى الغابة العذراء كما أمرني الهاتف، ورأيتُ الذي حدثني عنه وبلغتُ الينبوع الأول فشربت منه ثم بلغت الثاني فالثالث وأخيراً الرابع حيث كلمني الهاتف العلوي، عند ذلك ارتفع الصوت يا أماه، حتى خلته يأتي من مكان بعيد في قبة الكون وظل يحدثني بأحاديث غريبة لا أفهمها إلى أن قال مبارك أيها المجنون فقد ارتفعت عن الأرض بمقدار ماشربت من ينبوع الحكمة وينبوع المعرفة وينبوع الحزن وينبوع الانعتاق فامضِ طليقاً، وترنم بحكمة الكون، فإذا حدثتك نفسك أيها المجنون ببلوغ غاية الغايات، فاعلم أن تلك غاية لم يصلها بشر، وانقطع الصوت الغريب يا أماه، وها أنذا بين يديك فاحفظي لي هذا السر في مكانٍ أمين..

قالت: .. وضع بين يدي سره الغريب ومضى لا يلوي على

www.alkottob.com

شيء.

ياصاحب الحقيبة، لم أزل كذلك إلى أن مرت من أمامي كل الكائنات وحمَّلتني من الأسرار عبئاً ثقيلاً.

ياصاحب الحقيبة.. أودعتني الخلائق ليلها الثقيل وحزنها النبيل والنشوة والفرح الجميل، في داخلي دمعة الأم التي ثكلت ابنها في ساحة القتال، وحزن الوالد على ولد ضاع في آفاق الأرض ومجاهيل الديار.

ياصاحب الحقيبة.. أنا الزوجة التي تنتظر زوجاً في كل لحظة يعود ولا يعود، وقفتُ على شاطئ البحر... فعلا المد وعادت معه السفائن والمراكب تحمل بحارتها ونظرت فإذا النوارس عادت وكل شيء عاد إلا زوجي أنا فلم يعد.

وحملتُ نفسي، ياصاحب الحقيبة، على أعيائها فلما بلغتُ مرفأ الصحراء، جلستُ أنتظر القوافل العائدة مع الريح، فعادت القوافل وعادت الريح، وحده الحبيب الغائب لم يعد، قالت: ياصاحب الحقيبة، أنا الطفل اليتيم أنام على وسادة الحزن وعند الصباح، أبحث في كل الوجوه عن الوجه الحاضر الغائب، عن الوالد الحنون الذي مضى.. وطواه المجهول...

ياصاحب الحقيبة.. أنا الشاعر الحالم الحزين، أترنم بالجمال الأسمى وروح الوجود، أمشي في الربع الذي لم تمشِ فيه الكائنات، وأُلاحق في الليل طيف امرأة من أثير الأماني. أصغيتُ لأرواح الكائنات وهي تعوي في الخلاء الأبدي، ولم تسمع تلك الكائنات عويل روحي، ياصاحب الحقيبة الحمراء، يا أيها البدوي المسكين.. أنا الملاك الذي يبوح بسر الكائنات، حملت في البدء الأمانة وأشواق الحياة، وأنا الينبوع الذي اغتسلت فيه الخلائق في فجرها الأول.

مشت على جسدي الجيوش المحاربة، والتقى على شجني أول العشاق...

أنا أوفى من صحب الإنسان، فرحت مع أمه عند مولده،

www.alkottob.com

وهدهدته لدى السرير في طفولته، ملأته شجناً وحزناً جميلاً في مراهقته، وعزماً وإقداماً في شبابه ورجولته..

وتفتقت عاطفة الإنسان فكنت أنا مستودع عاطفته وأرّقَ السهاد الإنسان، فكنتُ أنا أنيساً لوحشته، وتُعذّب وبكى الإنسان، فحملت أنا عذاباته وجراحاته ودمعته، وابتسم الإنسان فابتسمت لبسمته.

أنا الموسيقى أوفى من صحب الإنسان...

رافقته في بدء رحلته، ومشيتُ مع طفولته السعيدة، وشبابه الغض العنيد، ورجولته التي تُشْتَهى، وكهولته التي استسلمت، وشيخوخته الجليلة المتأملة، رافقته في كل مراحل حياته بكيت لدمعته وضحكت لضحكته، وحزنت لحزنه وفرحت لفرحه وأنا الموسيقي.... أوفى من صحب الإنسان، أكملت وفائي فمشيتُ مع الإنسان في جنازته..

أنا ياصاحب الحقيبة الحمراء... صحبت الكائنات في الأزل، ومشينا مع الحياة...

نشوة العناق الأولى كانت في صميم الليل، والليل سيد المتاهات الكبيرة... والتقينا على مراشق المدن البعيدة، غرباء كنا... والرصيف أول المنفى..

ودرجنا نشق الدروب التي تتناطح على جوانبها رؤوس الأموال، وتنحني الهامات ذلاً... هامات الرجال...

غرباء كنا... والمدينة امرأة مقنعة، حبست شعرها في قبعة، والمدن الملثمة ياصاح، توقد قناديلها في الليل فتشتعل اشتعال الكواكب في السماء، وتنطفئ عند الصباح، لكنها لا تبوح بسرها للفقراء والمساكين وأبناء السبيل...

وقالت المدائن... في البدء كنا فتيات لهن حسن فريد، وكان الفقر سيدنا وأبونا شيخ كبير فلما ضاقت بنا الحال، خرجنا وجلسنا على قارعة الطريق، وأقبل موكب السلطان الغاصب فنظرتنا عينه

www.alkottob.com

الفاجرة.

في الليل جاء السلطان الغاصب إلى بيتنا تحوطه مسوخٌ بشرية مثقلةٌ بالدروع والسيوف والرماح السمهرية فهددَ أبانا ورمى في حِجره بضع دراهم وسبانا، نال مايشتهى في ليلته تلك ثم رمانا كالطيور المذبوحة في حظيرة الجواري.

وانحنت رؤوس المدائن، وانخرطت تبكي بكاءً مراً مكبوتاً ومخنوقاً منذ آلاف السنين، وارتفع ذلك النحيب حتى تجاوبت أصداؤه بين أركان الكون، وكان الليل موحشاً والنحيب أكثر وحشة وألماً وفجيعة.

وسمعت المدائن تقول في زحمة نشيجها وبكائها الأليم: لقد كان في سالف عهدنا المذبوح ياصاحب الحقيبة الحمراء.. نهد أبكار، واليوم.. آه من اليوم، هانحن كما ترى يظننا من يرانا أننا أسعد أهل هذا الزمان، ونحن في الحقيقة أتعس الخلق أجمعين.

نجلس في صميم هذه الأسوار، في الليل وفي النهار، أيدينا وأرجلنا مغلولة بالمال والعار ونمشي متعثرات كالعاهرات، على شفاهنا بسمة مصنوعة وقلوبنا تحترق..

ثم ندخل تلك الدهاليز المعتمة.. الدهاليز التي مات فيها الإنسان وانتحل صورته الشيطان.

ياصاحب الحقيبة.. نحن جواري السلطان، في قصره المنيع ذي الأفنان، في دهاليزه المعتمة التي مات فيها الإنسان، وانتحل صورته الشيطان...

وعرةٌ هذي المسالك وطويلة هذي الدروب...

لكن الرحلة انطلقت، ياصاحب الحقيبة الحمراء، ولم تعد تصلح للعودة.

أنا الصارية المسافرة في كل السفن، وأنا البحار الحزين، وأنا الشراع...

www.alkottob.com

أنا السندباد المسافر ياصاحب البحر...

تعرفني البحار البعيدة والجزر المجهولة، والمنارات والعواصف والجبال التي تجثم في قاع البحر فتتحطم على صخورها السفن...

***

وتحطمت سفينة الملاح اليتيم على ذلك الشاطئ الصخري المجهول..

وكان ذلك الشاطئ مرفأ الجزيرة التي توارت بحزنها في ظلمات البحار، كان ليل تئن تحت وطأته الكائنات، وعاصفة تقيم مناحة في صميم الكون.

وتسلق الملاح اليتيم صخور الجزيرة، وارتمى في عتمة النبات الغريب، ثم نام الملاح وعند الصباح ترجل من دابة الحلم ومشى في زحمة المشاعر وتدافع الأفكار، ظل يمشي في الدغل الكثيف، ويشق درباً مابين الغصون المشتبكة هو أول الدروب في تلك الجزيرة التي توارت بحزنها في متاهات البحار.

وانحدر به الدرب الوليد على بحيرة صغيرة تنام كالحسناء على بساط أخضر حتى السواد، وعندما انشرح صدره المغموم فرّت من عينيه دمعتان هما أول الدموع في تلك الجزيرة. وتأمل سطح البحيرة فرأى بطاً وأوزاً جميلاً يسبح في هناء وراحة بال، ورأى على ضفاف البحيرة ترتع أسراب من الطيور الأنيسة، على تلك الضفاف الوادعة... مَثَّلَ الطاووس زهو البتول، ومشى بجانبه الهدهد مزهواً بحكمته، والبجع المسكون بحلم الخريف يتنزه على تلك الضفاف.

الطيور.. الطيور قال الملاح.. الحسون والبلبل الشادي والكناري المغرد و... ياللروعة أبو مركوب.. أبو مركوب هنا.

ونام الملاح اليتيم مستأنساً بالبحيرة وكائناتها الجميلة، لكنه في الليل استيقظ مذعوراً وأحس بألم عظيم، وتلفت فإذا البحيرة راقدة مثل

www.alkottob.com

طفلة صغيرة وداهمها نوم خارج البيت، وإذا الطيور التي آنستها منذ برهة غادرتها وعادت إلى وكناتها بين الأشجار، أفيقي أيتها البحيرة.. وأقبلي أيتها الطيور.

والليل طويل الإقامة، والبحيرة العذبة والطيور الجميلة في سكون عميق، عمق هذا الظلام، لكن الملاح اليتيم ظل يغني في الليل.. أفيقي أيتها البحيرة.. أقبلي أيتها الطيور.. وفجأة ثقب حجاب الظلام صوتٌ يقول:.. الوحشة والأنس، الليل والنهار، الخوف والسكون. الألم واللذة، الظلام والنور، الذكر والأنثى، الجهل والمعرفة، الجمال والقبح، النوم واليقظة، الظل والحر، الصحراء والبحر، السهل والجبل، الحرب والسلام، الحب والكره، البكاء والضحك، الخوف والفرح، العافية والمرض، الموت والحياة، العذاب والغفران، ومضى الصوت يقول.. أنت الذي اخترت أيها الإنسان..

والليل رداء أسود يجلل الكون، ومن تحته ترزح الكائنات في خوف مقيم.

في الليل... وبعد أن أطفئ المصباح... أشعر بوحشة غريبة..

ولأجل عينيك ياسدرة السراب الأزلي، لأجلك يا امرأة المنتهى، وسيدة البداية والنهاية لأجلك.. أبارك وحشتي... وليلي الموشح بأردية الحزن.

سأظل أمشي وحيداً في ذلك الخلاء الأبدي المروّع، أُلاحق القافلة التي تهتُ منها في ليلة عاصفة وهبوب السموم الكاسحة، لقد مشت القافلة يقودها الخبير الذي تعلم حكمة النجم، ثم انحدرت بها الرمال على شفق مجهول.

وأنا على آثارها أتعقب السراب، وأُلاحقَ الأطياف من بيد إلى بيد.

لقد أرخيت لبعيري الرسن، وتركته حراً يخب في الخلاء الوسيع ليحملني إلى حيث تقوده الأقدار.

www.alkottob.com

أنام حيثما يبرك، وأرحل وقتما يطيب له الرحيل.

لكنك سراب ياسيدتي.. وهمٌ أتعقبه في دروب الحياة الوعرة.

أنتِ فجر كاذب وملثم ياسيدتي.. صحوت في أوله لأرى وجه الملاك العائد.. فرأيُت شبح المأساة..

لكنني ياصاحبة النداء الحزين.. قَبِلتُ الرهان الخاسر في البدء، وطفقتُ أغرس في مرارة بذور الهزيمة والخذلان..

قايضتُ بكِ كل ما أملك ياسيدتي، فما ربحتكِ وماربحتُ نفسي، لقد خسرتُكِ في أول المغامرة فعدوتُ ألهثُ كالمجنون، أقدم كل شيء وأتنازل عن كل شيء، ولكنني أخسر... وأخسر إلى أن أصبحتُ أنا الخسران ولا خسران غيري،..

وأنا البدوي الذي قايض عمره بابتسامة.. وجلس على حافة القبر ينتظر القيامة..

قال البحر... ياصاحب الحقيبة الحمراء، شهدتُ أنك أنت السندباد القديم الجديد وعهدي بك مولود وفي يدك الحقيبة.. فهل تقعد أيها السندباد ومجاهيل الحياة تشتهي أن تراك؟!

لقد اشتقت لصحبتك أيها الملاح اليتيم فتعال معي..

البحر يناديني...والمراكب التي طال عليها الأمد تتوثب لانطلاقة ميمونة في صميم المجهول...

***

حيّ على السفر... حيّ على السفر..

حيّ على السفر أيها المسافر الغريب، كأن ليس لغربتك نهاية وليس لأسفارك حدود.

حيّ على السفر.. ياصاحب الحقيبة الحمراء يا أيها البدوي المعفر بالتراب والظمأ والحزن..

www.alkottob.com

المراكب تناديني..

والبحر يناديني...

وأنا ابن السبيل..

حيّ على السفر أيها الملاح الذي تضحكُ لمرآهُ الصواري وترقصُ من بهجتها القلاع.

الضياع يناديني..

مرافئ الموت البعيدة تناديني

زوابع البحر تناديني

تعالَ أيها المتشرد في الآفاق، فأنت بلا وطن..

عاطفتك قيد لمعصميك..

وقلبك جلادك الأوحد

الغربة موطنك الأبدي..

***

ومسكنك في الكون الحقيبة..

وتهالكنا تحت وطأة الذات المستوحشة في الليل.

وارتعشت مداركي في ذروة المعانقة مع الشوق الأسمى، وثورة الحزن الذي ينام في مغارة الروح.

واقشعر بدني تلك القشعريرة التي تتحفز فيها جميع الحواس، وصحوتُ فجأة على مكان اكتمل فيه الليل ولم يبقَ سوى الهامش الأخير..

وتنبهت فإذا أنا في مجلس الراوي وحوله الرفاق ينصتون في سكون مهيب..

وسمعتُ صوت الراوي كأنه منبعث من داخلي يقول.. بعد

www.alkottob.com

سبعين عاماً يارفاق الظلام كان ملك الجزر الأربع قد مات، وابنته الأميرة فينوس ماتت هي الأخرى.

أتذكرون تلك القلعة يارفاق الليل.. تلك القلعة المتجبرة التي مات تحت إحدى شرفاتها بائع الأمشاط والمرايا، لقد أصبحت طللاً في ذاكرة الحياة..

ولما هاج البحر واضطرب داهمها في ليلة مظلمة فأصبحت أثراً بعد عين..

أصغينا للراوي في ذلك الهزيع الأخير من الليل وهو يسدل الستار الأخير على موت الشاعر.

وتلى الراوي البتول ختام الرواية التي تموت على الشفاه لتولد من جديد في خبايا الذاكرة.

ونحن خشوع نستمع ذهب يقول... يموت الشاعر ليحيا وهو الرابح الأخير في مقامرة الحياة والعدم..

ويوم اشتدت حرارة الأرض، وأُضرمت النار في تلك البقاع المتجمدة من الكون، ذابت جبال الجليد وتلال الثلج الكبيرة، وارتفعت كالطوفان، ثم انحدرت تغمر المحيطات والبحار، لقد هاج البحر على البحر،وسما الماء على الماء فاحتدم الصراع الضاري في صميم الخضم العظيم..

يوم التقى البحر بالبحر، وتدفق الماء على الماء.. غابت جزرٌ بأكملها تحت اللجة وتوارت سواحل اليابسة البعيدة بعمارها وزينتها وابتلعتها الهاوية التي ليس لها قرار.

يارفاق الليل... صراع الماء واليابسة لا ينتهي...

يوماً غلبت اليابسةُ البحرَ، فمشى التراب مزهواً بخلقه وكائناته يلاحقُ البحرَ في كل مكان، وعندما أيقن البحرُ بهزيمته أمام التراب فرَّ من وجهه مذعوراً وتوارى بحزنه في الركن القصي من الكون...

www.alkottob.com

لكن التراب جبّار عنيد، أخذته نشوة النصر وسكرة الغلبة المفاجئة فلم يكتف بردم جوانب البحر وطمرها تحت أثقال كائناته الأليفة والمستوحشة، بل طفق بعتو وغلظة يتربص بالبحر المهزوم في كل مكان يلوِّح في وجهه بالرعب والموت ويدوس بأرجله المسمومة باطنه الحزين...

عندها يارفاق الليل... طفح الكيل وبلغ السيل الزبى... والبحر في غضبته سيد الأسياد، يوم استنجد البحر بقوى الطبيعة الأخرى، توافدت عليه من كل فج وتواطأت في ليلة مظلمة مع البحر ضد التراب الغاصب.

لقد تضافرت عناصر الكون على التراب وكان من أمره ماكان..

***

عندما هبت نسمة الفجر الأولى قال الراوي... الأرض أخذت مالها وردت ما عليها فلا غالب ولا مغلوب، والكل في ملكوت الله واحد..

هي الأرض.. حسناء الكواكب وكاعب الأتراب.

على بابها يتزاحم الخُطَّاب في كل جيل، وتلهجُ ألسنةُ الخلائق بجمالها في كل الفصول وعلى جسدها الغض النبيل نما الموت ونمت الحياة...

هي الأرض... ميدان الصراع الأزلي الذي لن ينتهي مادامت الحياة.

جميع الكائنات في الكون لاترى غير الأرض مكاناً يصلح للحروب، فجسد الأرض أقدس الأجساد وأصلحها مكاناً للحياة والموت.

الكواكب المعلقة في الخلاء السرمدي الفسيح عندما تغضب لا

www.alkottob.com

تثور إلاّ على الأرض، الشموس ومدائن النجوم والمدارات الكبيرة والمجرات وسائر الأفلاك لا تعشق سوى الأرض..

لو تقاتلت في الفضاء المهيب لأرسلت هدية الحرب للأرض، أو تصالحت لبعثت للأرض هدية السلام..

البحر والصحراء يتقاتلان على جسد الأرض وباسم الأرض، يقتل الإنسان أخاه الإنسان باسم الأرض، يسجنه، يعذبه. ينفيه إلى أقصى الكون باسم الأرض وحب الأرض، يقفز ليلاً على رقاب الملايين من التعساء والأشقياء سلطاناً وحاكماً ومؤيداً باسم الأرض...

الحيوان يقاتل الحيوان، والحشرة تقاتل الحشرة، كل العوالم والكائنات على رحابة الوجود يقاتل بعضها بعضاً باسم الأرض وحب الأرض..

الأرض ميدان الصراع وساحة القاتل والمقتول.

الحياة تقاتل الموت والموت يقاتل الحياة..

أخذت الأرض مالها وردت ماعليها، فلا غالب ولا مغلوب، والكل واحد في ملكوت الله الكبير وفي ذيل المأساة... يستوي الخاسر والرابح، الحاكم والمحكوم، الغاصب والمغصوب، السالب والمسلوب، القاهر والمقهور، السجان والمسجون، الطاعن والمطعون.. القاتل والمقتول...

وطلع الفجر الأقدس من بعد الطوفان والمأساة..

وانحنى رحيماً بوجهه الأبلج ونوره السني يضمّد جراحَ الأرض النازفة ويلفها بأرديته البيضاء النقية، ثم ضمها إليه ضمة العاشق البتول، عندها ارتعشت الأرض، وقال الفجر سلاماً أيتها الأرض الطيبة..

مبارك فيكِ صخب الجسد واقتتال الكائنات.

وطيبي مكاناً نبيلاً للموت وللحياة.

www.alkottob.com

غاض الماء وانحسر الغمر، وتوارت الكارثة في الأمس الذي مضى

والحياة تولد اليوم..

والأرض تولد اليوم...

والفجر فجر اليوم...

ذهب الأمس بخيره وشره...

والكون حضور دائم..

***

سكت الراوي زمناً لا أعلم مقداره، فظننا أن ماعنده قد نفد، لكنه رفع رأسه إلينا وتأملنا واحداً واحداً، ثم التفت ناحية الباب وقال.. لقد أدركنا الفجر..

أيها الرفاق، وآن الأوان لكي نتهيأ لصلاة الفجر في المسجد.

ثم عاد ينظر إلينا ويقول.... الليلة أكملتُ لكم قصة الشاعر ماهر البدوي الذي تخفى في زي بائع الأمشاط والمرايا لكي يلتقي بحبيبته فينوس بنت سلطان الجزر الأربع.

وحدثتكم بمأساة موته تحت شرفة حبيبته الأميرة، وأخبرتكم بالطوفان ومابعد الطوفان... لكنني لم أحدثكم بخرج الشاعر المقتول...

ونحن أشباح أربعة... اختلطت أصواتنا بصوت المؤذن الذي ينادي لصلاة الفجر، قلنا بصوت واحد.. أهو ذلك الخرج المحشو بالدفاتر والكتب القديمة؟..

بلى... هو ذاك الخرج الذي عيروه به ونسبوه إلى الفقر والمتربة، وقالوا شاعر صعلوك لا يملك من حطام الدنيا سوى خرج قديم محشو بالدفاتر والكتب، وقالوا هو شاعر والشعراء أفقر خلق الله، ليس معهم غير هذه البضاعة الفاسدة التي اسمها الحب، وقالوا أينما

www.alkottob.com

حل شاعر فأبشر بفقرٍ مؤبد...

ولكن يارفاق الظلام والفجر قريب... هل كانوا يعلمون أن الشعر يطيل عمر الكائنات، مضى الشحرور وبقي صوته العذب الجميل، ومات العندليب ولكن حنجرته بقيت تغرد في الكون، القمرية التي سجعت في ذلك المساء اللأزوردي الحالم.. ذهبت إلى حيث لا نعلم ولكن سجعها الشجي بقي في آذاننا إلى اليوم...

وكذلك هو الشاعر... يموت ليبقى ويفنى ليعيش...

بعد مقتل الشاعر بعشرات السنين حمل اليم ذلك الخرج الحزين وألقاه على شاطئ جزيرة في قلب المحيط، ويوم اكتشف الناس تلك الجزيرة وجدوا دفاتر الشاعر بعضها ممحي أذابته اللجة وبعضها معافى من الأذى، وجدوا اسم فينوس واسم الشاعر البدوي فتيا منوا بالفأل الطيب... وأطلقوا على تلك الجزيرة المجهولة اسم الشاعر فعرفت بين الناس بجزيرة الشاعر البدوي...

وانتصب الراوي قائماً وانتعل حذاءه وأحكم على رأسه عمامته الكبيرة، وتناول عصاه بيده وقال أدركنا الفجر يارفاق وينبغي أن لاتفوتنا بركات الفجر.. (وقرآن الفجر، إن قرآن الفجر كان مشهوداً). ومضى..

ودخل كل واحد منا في إهاب صمته، ونهضنا فتفرقت بنا سبل الحياة مع أول طلوع النهار...

***

من المهد إلى اللحد، ومن الغيب إلى الغيب، يسير الإنسان ضاحكاً وباكياً، عالماً وجاهلاً، مسحوراً يتبع النداء المحموم.

لكن النداء لا ينتهي إلى غايةٍ معلومة، كما أن الوجيب لا يسكنه إلا الفناء والإضمحلال في صميمِ الأبدية.

ولهذا أبثك يا سيدتي شظايا سكينتي المحترقة، لذا أتلو عليكِ قصيدتي التي اختزنت حلم الوجود وعويل الصبا وحزن المشيب.

www.alkottob.com

فأنت إذن يا سيدتي امرأةٌ مجهولة تدب في مجاهيل الحياة، لكنني اصطفيتك بيتاً لأوجاعي وأسقامي، وأخترتك وسادةً عائمة أُريح رأسي عليها بعد الدوار الطويل، فاغفري لي إذن هذا الدخول المباغت بسماحة الأنثى التي لا يخلو قلبها المضرج بالحياء من الرحمة.

ربما كان مخجلاً يا سيدتي أن أحطم جدار العدم وأجرؤ على اقتحامك من عالمك المجهول، ولكنه النداء يا سيدتي..

هذا النداء المبهم الغريب الذي اختارني من بيت أشباح الكون لأمضي معه مسحوراً إلى حيث لا أعلم.

هذا الحنين الشجي إلى امرأةٍ لا أعرفها و لا تعرفني... إلى امرأةٍ تنام كالملاك على تخت الحروف ونزيف الكلمات.

أواه... أيتها الأنثى التي لا أعرفها... اغفري لي هذي المناغاة عبر سديم الحياة واغفري لي هذا النزيف المحموم الذي يسيل كالنهر من جسد الحروف وجسد الكلمات.

فأنا وهمٌ يا سيدتي.. وهمٌ يتكور في أسطح البيوت التي بللها المطر، وعلى الدروب الحزينة التي يتزاحم فيها البشر، على نواحي الليل المشدوه المحدق في فراغ الأبدية.

أنا الطيف الباكي يا سيدتي أسير في موكب الأطياف حتى آخر الهذيان والحلم، إلى الفناء في قعر الأبدية السحيقة.

ولذلك اصطفيتك لنفسي أبديةً أضمحل فيها مبهوراً، وأنحلُّ فيها كالغيمة الهوجاء. واخترتك فناءً وعدماً أمشي إليه مختاراً لأغفو متلاشياً فيه كما يغفو الناي الحزين بين شفتي راعٍ على مرجٍ أخضر.

أنا رسمٌ ممحيٌّ يا سيدتي ملوثٌ كالمسخ، كالشبح الحزين أدرج من فراغ لا نهائيٍ مهيب.

فكم مرةٍ إذن.. أشرق نور الصباح.

www.alkottob.com

وكم مرة أقبل الليل الكتوم

وكم مرة حدق من عليائه القمر.

وغفوة الخريف الرحيم على الجروف وفي المنحدرات ما بين الأشجار، وهديل القمري على السفوح، وهدير المياه بين الصخور، وتسبيحة الوادي الساجد بين يدي الله. عفوك يا صاحبة الوجه النبيل الذي لا أنسبه إلا لوجه أمي.

عفوك إذا أحرقني السهاد في صميم الليل فطفقت أنفخ فيك من روحي، ثم دحوتك حقلاً خصيباً أُبعثر فيه العذابات وأسفح عليه الدماء.

فأنت يا سيدة المزمار متاهتي التي أدرج فيها واثقاً من فنائي. فلتعلمي إذن أنك أنت القافلة المسحورة التي تبعتها في التيه العظيم. وأنت الهودج المحروس بأسنة الرماح وظمأ الصحراء والعدم.

أواه يا سيدتي...يوم فُطمتُ من ثدي أُمي، أهرقتُ في جوفي قارورة الدواة... شربتها حتى سكرت، لقد كان أبي فقيهاً فبارك هذا الشراب... لذا فأنا أكتبكِ اليوم يا صاحبة النشيد بمزيج من حليب الأم ومداد الكتابة وأنا حقاً لازلتُ طفلاً يندد بالفطام ويحتج بشرب الدواة في كل يوم.

لقد كتبتني أمي بثدييها صحيفة بيضاء...

وكتبني المداد من لدنه صحيفةً سوداء..

وها أنذا لم أزل طفلاً يعبث بالألوان، ويلهو بأدوات الكتابة..

ولطالما كتبتُ نفسي في موهن الليل ثم محوتها في أول النهارِ، حتى إذا ما اقبل الليل ثانيةً أعدت الكتابة من جديد.

ويوم أيقنتُ أنني منذور لكتابة امرأةٍ مجهولة، علمتُ أن طفولتي لها أصلٌ في رحم الغيب.

لطالما شدني إليك حنين مبهم أيتها القديسة، وأنا طفلٌ تسحرني

www.alkottob.com

النداءات الغامضة فأركض نحوها مبهوراً حتى الجحيم.

وإذن.. فقد مهدتكِ للبوح الأليم يا سيدتي، والكون لا يعدو كائناً فرداً يتدحرج من حزنٍ تحت المطر.

أواه يا سيدة الأغوار البعيدة... لقد شدني إليك عقم السنين اليابسة فأفردتُ لجسدي الشراع لكي يبحر مبهوراً تحت زخات المطر، ومشيتُ في وجل اليتامى أترنح على الدروب العاطلة.

لكن شعاب الزمان مقفرةٌ وأفق الحياة غبيٌّ وشحوب، بيد أني يا متاهة الرغائب حملتُ نعشي على كتفي وعدوتُ أطلبك في فجاج الهلاك في فجاج الردى وأفواه الجحيم.

أموتُ شوقاً إليك يا سيدتي، وأهذي باسمك محموماً على الطرقات هذا أنا ياملكية البحار التي تنام تحت أمواجها روحي..

هذا أنا يا صاحبة الأناشيد التي ما فتئت تدق أجراسي...

هذا أنا أمشي إليكِ خاشعاً كالأحبار والرهبان في عيد العذراء البتول متعثراً في صبابتي، تنظمني وتنثرني ألحان شبابتي.

أحمل على ظهري تابوتي وأكفاني، وأشق الهول أطلبك قبراً لنفسي في الضريح الكبير.

أواه... يا صاحبة الناي الحزين والنداء المفجوع، أي بيداء موحشة بيدائي أيٌّ صحراء تسكنها الغيلان والأِشباح صحرائي.

فيا ليالي الشتاء والثلج والمطر...

يا موقد النار والشهوة.

يا هزيم الرعد البعيد.

يا جسر الظلام القتيل، وسراط البرق

www.alkottob.com

يا رعشة الذبيح في المحراب، ودمعة الثكلى.

يا شهقة الملاحف الباردة، وضجعة الموتى

يا أيها المعلوم والمجهول.. تلطف بالدنف الذي يعدو خلف السراب الأجنبي البعيد.

يا سيدة البكاء والنواح...

والليل حيٌّ يشيع جثمان الصباح

وأنا ابن السبيل، وابن الشهور

أسعى إليك فزعاً مع الرياح التي يتنفسها السديم

آتيك مجبولاً من سكينة الكتابة، وكتابة السكينة

وحشرجة الحرف الشهيد تحت سنابك الليل.

وصهيل الدماء التي أضرمها الشوق.

سيقتلني هذا النزيف يا سيدتي، وسأموت مسحوباً على وجهكِ الذي ملأ الأرض عيوناً وضفائر وعانق السماء بنحر الصلاة.

ولسوف يخرج من هامتي طائراً يعوي ويصيح... يصيح في حرقة الظمأ للدماء والثأر يقول اسقوني.. اسقوني شربةً من أصل الحياة وأصل الفناء.

أيُسكته الرصاص الذي يمشطُ ضفائر الأطفال...؟

أم دوى قنابل اللهب على جنبات وادينا والبيوت...

أيُخمد ثورته قهر الطغاة، أم يُحبس في قفص المأساة الخالدة.

أيُصلب في ساحة المدينة الباكية، أيرجم في البيت الحرام..

أم سيُلقى للكلاب تنهش من لحمه في الليل.

لكن هامتي يا صاحبة الشفاه المضرَّجة بدماء شهدائها، تُفرخ في

www.alkottob.com

الليل آلاف الطيور التي تصيح، ولن تعود إلى هامتي المتعبة حتى ترتوي... لن تعود حتى يبلغ سيل الدماء الزبى.

وتغوص الخيل الصافنة في تلك الروابي بحر الظلمات المتلاطم منذ الأزل.. فإذا تلونت مناقير تلك الطيور بمداد الحياة الذي لا ينضب.... عادت إلى وكرها الآمن، واستوت هامتي على التراب راضيةً مطمئنة.

والليل يا سيدة الجياد والصهيل..

ليس في الكائنات له شبيه و لا مثيل.

لكنني وأنا الملاح اليتيم... خرجتُ إليه تحت وابل البرد والمطر، فحبستُ أنفاسي، وتلوت أورادي، وتقدمت أمشي إليه. بخطىً واثقة..

قاتلته يا سيدتي بغرفةٍ من دمائي التي أخُطُّكِ بها الآن، فاستسلم من خشية الدماء المتكلمة، فقبضتُ عليه وحبسته في قارورة المداد.

مظلمةٌ هي النفس، ومظلمٌ هذا الحديث.

فأي الإناث أنتِ يا سيدتي حتى آتيك هذا النشيد، فإنه ليس كمثل الأناشيد التي قرأتِ ولا كالأحاديث التي سمعت.

إنها قصة قلبٍ سحرته قرمزية الشفق، وألوان المغيب التي تدعو للسفر فمضى حالماً ومبهوراً يطلب آفاق الأرجوان.

ذلكم قلبي أنا يا مليكة القلوب الحالمة، قلبي الذي أضر به عقم السنين ويباس المحيط والبحر، فترجل عن أفراسه مكسوراً يلهث من قفر الحياة ويتعقب السراب داراً إثر دار، عفرته البوادي ودفنته الرمال، مشى على كل الدروب القاحلة، ونام على كل الأرصفة، داسته أقدام العابرين ونهشته ذئاب الجبل، حملته أسراب الغمام وحملته أسراب الحمام، وتلوى في دهاليز السفن المسافرة وأذناب الجِمال.

فأيُّ امرأةٍ أنتِ لكي أدعوكِ لصحبتي في آخر الليل، وآخر الهذيان، وآخر الحلم.

www.alkottob.com

ألأنَّ عناق الليل تباركه النجوم.

وعطر الأُنثى المهذَّبة يطرد الأشباح.

والوسائد العطشى على السرير تتفتح كالورود لضم امرأةٍ عابرة ورئة السحاب التي ترشح مطراً وثلجاً تصوغ حكاية الدفء الوليد.

وفحيح الرياح في أقصى الحقول يدعو لعناق امرأةٍ مجهولة...

من آخر الليل إلى أول الصباح، ومن أول الصباح إلى آخر الليل.

في صهيل الليل المتوجع المحموم، وتحت حوافر المطر والبرد الشديد أرقد مرمياً كجثة قرصان ممجوج في مغارة الأشباح والأرواح التي لا تنام مطمئنَّة، لكم سمعتُ صوتكِ الهامس المتضرع وهو يأتيني كصدى حلمٍ قديم أو أغنية بعيدة من ضفة الحياة الأخرى حيث الإناث والطعام والشراب علب السجائر وعلب النوم.

وأنا الغريب المُلقى على وجهه في كهف الظلام، يليق بتعاستي التصور والحلم وخليقٌ بمثلي التوهم والجنون.

وإذن... فهلوسة مداركي تقول لي، أن لك صوتاً مشبَّعاً بالأنوثة حتى النزيف والألم، وحتى البكاء والنشيج.

وحكت مداركي تقول....

لم يكن عطراً باريسياً ذاك الذي يضوع منك كلما أتى المساء كلا ولم يكن بخوراً شرقياً تسكنه الأساطير.

ولكنه النداء يا سيدة النداء...

هذا النداء القديم الجديد..

صلوات أمٍ تفرق بنوها في شعاب الحياة.

دعوات شيخ بتول في مغارةٍ مهجورة.

عينا صبيةٍ أشرقتا بدمعٍ هتون

www.alkottob.com

مزمار عاشقٍ يئن في موهن الليل.

قصيدةً تتلوها الرياح فتسمعها البساتين.

صوتك القديم يا سيدتي.. لقد كان أول من دعاني وكنتُ أول من لبَّى الدعاء، وطفقتُ أعدو في الخلاء السرمدي المهيب، في الفراغ الذي يتمدد فيه الرعب والهول وليس له نهاية، أفزع فزع الظليم المذعور وليس أمامي سوى البيداء... وهذا النداء.

نداؤك يا سيدة السراب الأزلي.

يا متاهة الحلم والرؤيا، وشاطئ الهلاك الأكيد.

بيد أن العيون محض افتراض وأضغاث أحلام، وصوتكِ الهامس وهمٌ كحياتي، كنهر السراب الذي يجري في فجاج الظمأ الفطيم.

وجنائن الأقحوان التي عهدتها تنهض مع أبي في غبش الفجر وتشرب من يديه عندما يتوضأ للصلاة.

هل كان صوته مع أول الفجر يملؤني حنيناً وهو يتلو سورة الرحمن.

هل وشوشت مسبحة اللالوب في غفوتي وسكينتي المطمئنَّة.

هل أكمل الشيخ الجليل أوراده ثم مضى يتوكأ في دروب الحياة، لقد أقسم أنه كلما ذهب يحتطب من غابة السيال، يسمع القمري وهو ينشد ويقول....

رزقك الأرض والنهر يا والد العيال..

وكفاك الله الهوان وشر السؤال..

لقد أقسم الشيخ أن القمارى ناشدته الله في كل الصباحات الباكرة.

www.alkottob.com

وإذن.... فأين الإبريق النحاسي والزمزمية....

وأين الركوة التي قيل أنها كانت لوليٍّ من أولياء الله يصلي الفجر في البيت الحرام ويعود ضحىً لحواريه في خلوة مليط؟

بل أين السيف والمصلاة العسجدية....

ومسبحة اللالوب واللوح والدواة

والمصحف العتيق...

ولوحة الكعبة والأقصى ومسجد الرسول.

وراتب الإمام وذكرى المهديه...

وروح عبد الفضيل..

وعبد القادر إمام.

والقرشي الأول

والدماء السخية التي سُكبت على ضفاف النهر الخالد..

في مذابح الضلال القديم تموت الكائنات قرباناً لصنمٍ معبود، لقد كانت تُساق إلى جحيم المأساة كما تُساق الأضحيات، لقد كانت فديةً لسواها من الملوك والقديسين والكهنة.

بيد أني أسوق نفسي إليك يا سيدتي قرباناً وأضحيةً، وأسفحُ دمي على أعتابكِ كل يوم ولم أكن فداءً لملكٍ أو كاهن.

فأنا لست قرباناً إلا لأجلك ودمائي لا تسفح إلا لمثلك أيتها الأنثى النبيلة.

ليكن سعيي إليك قنوطاً ويأساً، ولتكن دمائي التي سفحتها على مواطئ قدميك لهواً وعبثاً، ولتكن قصائدي المفجوعة بين القوافل جنوناً وسفهاً.

ليكن مالا مناص من أن يكون...

www.alkottob.com

فأنا يا سيدة المحار التي أفر إليها من ذاتي وحياتي.... قد أقسمتُ لطفولتي في فجرها الأول بأن نسير معاً على الدرب الحزين من الحياة إلى الموت ومن الموت إلى الحياة..

يا آهة البرد والمطر الراشح في ليل الغرباء...

والشجن الملقى على قارعة الطريق وقارعة البروق

والحنين القرمزي إلى الدفء والمنفى

واليأس المتكرر تحت أوجاع الزمان.

أواه... يا سيدة المنفى...

يحرضني شوق الكتابة إلى الكتابة.

وتحرضني الكتابة على الكآبة

والصحائف البيضاء باكيةً مستلقيةً، كحقول من القطن في عالم المسغبة

كالصقيع المتراكم في الزمن المنطفئ

يحضني الشوق إلى الكتابة...

إلى النزيف الحلو بطعم الكآبة

إلى الطفولة المبعوثة بلون الخريف العائد والبجعات العائدة.

إلى السكينة في ساحل الليل المطمئن، بين غفوة الأنام ويقظة الأحلام

يحرضني شوق الكتابة...

أن أرفع مرساتي وقلوعي

وأعصر قلبي كمثل النبيذ

بين أوجاعي وضلوعي

www.alkottob.com

ثم أبحر ما طابت الريح

فلعل الرحيل في المنفى سلام

ولربما ترياق الشعر

يذهب الآلام.

يحرضني الشوق يا مليكة الحسن الماحق، والجمال الذي لا يُبقى ولا يذر أن أغفو على وجه صحائفي.

انتظر قافلة الكلمات في رحلتها الأبدية بين الشام واليمن

كم جملةٍ لحنيةٍ عبرتْ

وكم صورةٍ باكيةٍ رُسمت

كم قصيدةٍ غرامية سُمعت

وكم دمعةٍ قيسيةٍ سقطت

يدفعني الحنين إلى الكتابة...

حين يمتزج الحزن بالحبر

وتتخذ الكلمات شكل السحابة

حيث يتجاسر الحرف....

ويغدو أديماً للمزامير البعيدة.

وشجواً للكمانات والقمارى النائحة.

آه.. لقد مشت على جسدي قوافل الزمان، وأنا مازلتُ ملقىً لا أستطيع حتى الكلام.

فحدثيني يا سيدة هذا الحديث، كيف أكلم الناس عنكِ، وكيف أُفهم ذلك الشرطي الذي يسألني دوماً عن هويتي.

هل أقول له أنا الخطوة الأولى في رحلةً المأساة.

فلطالما يظن أنني الغريب الذي يدرج باحثاً في الكون عن وطنٍ

www.alkottob.com

حملته أشباح الظلام إلى حيث يجف الحليب من ثدي الأمهات، إلى حيث اقتضت حكمة السياسة الرشيدة بناء أول مقبرةٍ جماعية لموتى المجاعة.

أتراه يظن أنني أنا التائه الذي يعرج نحو السماء صعوداً في رحلةٍ أبدية الأطوار، كالحقيقة وكالحلم، كالموت وكالحياة.

غير أني محض حلم صغير يتكور في حشى الليل السرمدي المهيب، مجرد كائن يحمل بذرة فنائه في نفسه ويدب مزعوراً في فج الحياة مروّعٌ في النور وفي الظلام، غريب أينما يحط قدميه يمور من تحت قدميه التراب.

***

عندما يهبط الليل يا سيدتي ويطوي تحت جناحيه الأسودين كل العالمين يفر النوم من تحت وسائدي وجفوني وأبيت على سرر الصحوة المستوحشة. دكة نومي أتونٌ مشتعل وملاحفي نسجتها أحزان اليتامى من التعاسة والوجع.

رباه... من يغنيني هذه الليلة كي أنام، من يهدهد جفني ليستريح، من يمسد خصلات شعري براحةٍ حنونة فأغفو عليها وأحلم بالجنة والحور العين، من يكنس حطام الليل المتكدس على باب أُدحيتي ونوافذ قلبي.

وإذن... فخذي مزمارك يا سيدتي واملئيني أنغاماً تعيد لعينيَّ السكون وتُريح رأسي على مخدات السلام.

أوجعيني يا سيدتي، فليس ثمَّ وجعٌ نبيل إن لم يكن على يدك، وليس ثم مزمار حزين إن لم يشتعل بين شفتيك.

غنيني... غني لي يا سيدتي وامطريني ببرد الغناء، وهل بردٌ وسلامٌ إلا الغناء، فكذلك أوصتني أمي النبيلة وأنا طفلٌ لا يحفظ إلى الوصايا وحكايات الأمهات.

www.alkottob.com

غني لي يا سيدة الوصايا التي أصلها في الماضي المجيد، ففي غربتي أبطل الحزن كل مراجعي وفقدت ذاكرتي في لجة النسيان والعدم، لقد محى الزمان صحائفي وألغى كل الذكريات، لم أعد أذكر كم شجرةٍ من أشجار اللالوب تشمخ في فناء الدار التي ولدتُ فيها، ولا أذكر كم سدرةٍ على الدروب العاطلة التي طالما لعبنا عليها، لا ولا أذكر شكل جنائن الليمون والمنجة ولا لون العراجين عند أقاصي التلال حيث للقمرى مع النخيل حكاية عشق لا يموت.

لقد نسيت ألوان الملاحف والمواعين النحاسية والصور المطرزة على السجاجيد القديمة وخزائن الحديد التي جلبت من مصر وجربان الجلود والقرب والشِمال والبروش الملونة في أدحيات بيتنا الكبير.

لم أعد أذكر الراكوبة المنمقة ولا اللّدايا ولا موضع المصحف والسيف والإبريق من البيت.

لقد نسيت كم جبةٍ لبست وكم عيد، وكم مرةٍ بكيت في صدر أُمي.

لقد تكلست كل الصور وتجمدت كل الأصوات في خرائب ذاكرتي العجوز.

لكن صورة واحدة لا تزال كعهدي بها وصوتاً واحداً لا يزال كعهدي به وجه لا يزال حياً يرزق في الذاكرة الميتة، وموسيقى صوتٌ إلهي لا تزال أصداؤه تتردد على أفلاك سمع أصمَّهُ الطنين.

الوجه النبيل لا يزال كعهدي به حياً ونقياً حتى الشفافية والحزن.

الصوت السماوي الوقور أين منه سوناتات بتهوفن وألحان الطفل الإلهي موزار.

ذلكم صوت أمي الذي أسمعه في كل صوت جميل وهو أجمل، وذلكم وجهها الذي لا يضاهيه جمالاً وطهراً وجه من تلك الوجوه الملائكية الجميلة التي أبدعتها قرائح الرسامين في عصر النهضة وفي

www.alkottob.com

كل العصور وأودعت فيها كل أشواق الإنسان إلى السمو وإلى الكمال.

ذلكم وجهها الذي أبدعته يد الرحمن فتبارك الله أحسن الخالقين، وذلكم صوتها الذي باركه الله في الأعالي وأودع فيه الحكمة الخالدة فتبارك الله الذي يصعد إليه الكلم الطيب.

هدهديني كي أنام هذه الليلة يا سيدتي، فأنا في شعاب هذا الليل المنتحب أتوهج شوقاً ليد امراةٍ كاملة الأنوثة، أتنفس من راحتها الأوكسجين وأعبُّ منها ما يعصر من رئتي قطران السجائر ورائحة المازوت وأتحوط بها درعاً سليمانياً مطلسماً أتقي به شبحاً يمتصني في خلاء الليل المهيب، وأحملها سراجاً مباركاً في عتمة السراديب والظلال المروِّعة.

***

دفئيني بعطفكِ يا سيدتي فأنا طفلٌ مقرور تحت سماءٍ منطفئة، وأنزعي من على جسدي الضعيف ثيابي المبللة، وخذيني إليك أخذة صدق.

دثريني بعباءة قطن صنعتها بيديك ودعيني بجوار موقد النار أتجشأ دفئاً وسكينة وأنصت في خشوع لصمت التلال البعيدة وسكون تلك الجبال التي ابتلعت في جوفها سرها الأعظم وجثمت في جلال مهيب تتأمل صغار الكائنات في عتوٍ ولا مبالاة.

لله ما أوسع هذا الليل يا سيدتي... أتحفظين موشحاً لشاعر أدركه الليل على ظهر دابته وهي تخب نحو ديار الحبيب، لقد ضاع في مثل هذه العتمة شاعرٌ صعلوك يقرض الشعر ولا تجد الفئران في بيته ما تقرضه فتصوفت هي الآخرى وانتشرت في حُبَكْ الظلام تقرض الشعر.

أم تراك تحفظين سيدتي أرجوزة الطارق الغريب في موهن ليلةٍ من ليالي كانون العتيد والكون جبٌّ ينز من جوانبه الصقيع.

www.alkottob.com

هل آنس ناراً في ذلك الكوخ البعيد على حافتيِّ الغابة والنهر، أم يقوده طيف امرأةٍ تغتسل بالأمطار وتتعطر بالعواصف.

لله ما أوسع ليلك يا سيدتي، وأنا الغريب الذي يقتحم الصقيع فزعاً إليك، دبيب الشتاء يسري في عظامي، والمطر الراشح يثقل هامتي.

لكأنني أزحف في جوف مغارةٍ متجمدة منذ مئات السنين، لكأن قلبي فضاء بلا حدود، لكأنه خلاء أبدي تخشع من هوله الأبصار وتقشعر من وحشته الأبدان.

لكنني وأنا الطفل الذي ضاع من أمه وهو يحبو مأخوذاً خلف طيفٍ مسحور آنستُ فيك ناراً فعدوت أطلبكِ في التيه العظيم.

دنوت منك وما دنوت.

وبين الإقدام والإحجام أراني واضحاً كما لم أر نفسي من قبل، وأرى الحياة مذبحةً تجز فيها الأعناق قبل أن تشرئب وتموت فيها النفوس موتاً مكثفاً قبل رقدتها الأخيرة وقبل أن تشيع محمولةً على المناكب إلى المثوى الحزين.

لمن هذه الرؤى الباكية يا سيدتي، لمن هذا الضريح الذي لا يستبشر بقبر الموتى، لمن جهنم التي كلما قيل لها هل امتلئت تقول هل من مزيد؟ لمن سعادتي وشقائي وبكائي وابتسامي، لمن هذه الأكوان يا سيدتي ولمن أنا.

دنوت منك وما دنوت.

وبين الإٌقدام والإحجام أهيل على نفسي ركام الحياة البالية، واجلس مدحوراً بفشلي وذلي.

اجلس كالثكلى في خرائب الماضي المحترق، لا أملك من حاضري إلا الحديث عنه ولقد يستعصي اليراع أحياناً فيكف عن الحديث.

أراني كصاحب جرة السمن الذي علقها فوق رأسه وطفق يحلم

www.alkottob.com

ويحلم حتى تهشمت جرته واندلق السمن على رأسه الحالم فاستيقظ.

لم أر الحلم الذي طالما حدثته وحدثني ولا الحب في فج الحياة ولا الشعر ولا الفن.

لكنك قدري يا سيدتي، قدري الذي أسوق نفسي إليه مدفوعاً بكل ميراث الكائنات التي تنوس على عواتقها المصائر.

تلك الدروب التي مشيت عليها، أذكر أنني عبرتها كالنائم، بيد أني لا زلت أسري وأتخبط كالعشواء في السُرى، تتفتح في وجهي المتاهات وتتأهب لابتلاعي كهوف مظلمة، فلا أدري أيُّ جبٍّ مظلمٍ ألقي إليه بقطعةٍ من نفسي، ولا أدري بأي قطعةٍ من نفسي أفتدي نفسي.

يشتد شقائي حين آوي إلى مضجعي في آخر الليل، فحين أستلقي على رطوبة تلك الدكة الحزينة، تلك الحشية الباردة التي أستشعر صقيعها يسري في عظامي.. أحدث نفسي تواً بحديث النوم ويالشقائي بذاك الحديث. أغمض جفنيَّ لكنني لا أنام، أتنفس بعمق وهدوء لكنني لا أنام، أتقلَّب وأتأوه كالسقيم بيد أني لا أنام، أتمدد مسترخياً كالشيخ العتيق، أتكور منكمشاً مقروراً كالطفل الوليد غير أني لا أنام.

فلو أن لعينيك أشعةً تكشف ما في الصدور... إذن لرأيتِ فؤاداً غريباً لا يكف عن النواح ولا يكف عن العويل.

بيد أن للناس عيوناً لا ترى إلا الذي أوحت به الوجوه وتكلمت به الشفاه.

عيون الورى يا سيدتي يقصر مداها أميالاً و أميالاً عما وراء الأقنعة والأشكال. عيون الورى يا سيدتي لا تستشف أحزان الغرباء وجراحات اليتامى والمساكين وأبناء السبيل، فذلك شأن الإله.

ولقد حملتُ فأسي وحطمتُ تلك الحصون التي حوت سرها الأقدس.

www.alkottob.com

هشمتُ النوافذ والأبواب واقتحمت كمغتصب أثيم حرمة القلب الحرام.

مشيت على ثرى الفؤاد الذي طالما تحاشيته رهبةً وخوفاً، وافتضتُ بكارة قلبي الذي ظل أجيالاً في عتمة الضباب والغيب.

فبأي أبجدية باكيةٍ أحدثك يا سيدة هذا الحديث، بأي لغةٍ موحشةٍ كخرائب الفلوات المهجورة أبثك هذا الخطاب، وبأي مداد موجعٍ أكتبك يا سيدة هذا الكتاب.

آه لو تعلمين كيف تمضغ الكلمات قلمي، وكيف أتمزق أشلاءً وأنا أخطط وجهك مسهداً والنوم يمسّد أجفان العالمين.

غمستُ ريشتي في دمائي وطفقتُ أكتبك لغةً حمراء كمثل الجحيم الذي يعتمل في النفوس المعذبة، وأنثرك على الصفحات وجعاً دموياً من صميم الصميم.

فتحتُ قلبي الذي كان مختوماً بالتهجد آناء الليل وأطراف النهار ومحروساً بتلاوة الكتب المقدسة وصلوات الأنبياء والصالحين والقديسين وأولياء الله من ذوي الكرامات.

فتحته واستخرجتُ ما في جوفه من الكنوز التي لا يعلوها الصدأ، وعدوتُ أطليكِ بثراء قلبي وترف مشاعري، وأبذر بين يديك الكرامة والأعطيات وأبثكِ بإسراف الذي ظل يبخل بقلبه مدى الزمان حتى إذا ما تحرك الشوق السرمدي، حتى إذا ما بدأ النداء الأبدي أخرج قلبه للناس وكان من المسرفين، وأنا الفتى الغريب... راهنتُ على أعتابك بكل ماملكت يداي وكنت أعلم أنني أراهن على سراب.

كنتُ أعلم أنني إنما أُريقُ دمائي للرياح، للشفق المسحور اللازوردي للنورس البحري، للهذيان الليلي.

www.alkottob.com

كنتُ أعلم أنني أنا المحارب الذي تُكسر حربته في أول الصدام ويعرف هزيمته قبل اللقاء.

غير أني يا سيدتي خُلقتُ هكذا لأتعقب السراب وأروم المحال فجاً إثر فج، وغوراً إثر غور.

وأعلم أنني الخاسر الأول والأخير.

***

لا يليق بالتعيس إلا الشكوى، بيد أني لستُ التعيس الذي يشكو وإنما أنا التعيس الذي يحزن في صمت.

وصمتي قد فضَّته الصحائف التي نذرتها للحديث في وجه السراب الأزلي وللحديث الجهنميّ أزهاراً حمراء دامية كتلك الأشجار الجهنمية التي تزين واجهات البيوت في السودان.

وللحديث الجهنميّ نزيف متفجع يضرِّج بياض الدفاتر المترفة فلا تعود تشبه إلا خدود العذارى الحييات المترفات في بعض السهول التي منَّ الله عليها بالعيش الخضيل والسلام الجميل.

***

طوبى لعينيك يا سيدتي ما أبعدهما، سأظل أسعى نحوهما ما حييت سأظل أمشي كما يمشي الدراويش ولن أكف عن الرحيل.

ليس لأنهما طوق النجاة فلا نجاة مع الحياة، وليس لأنهما ساحل لازوردي للخلاص إذ لا خلاص في كونٍ ليس فيه حقيقة خالدة سوى الموت والفناء.

بلى يا سيدتي فليس لتلك ولا لهذه ولا لشيءٍ ربما.

غير أني كائنٌ ككل الكائنات التي تدب بين فجاج الحياة والموت، تسير مع قافلة الزمان يبعدها شوقٌ ويدنيها ويرفعها حلمٌ ويرميها.

وإذ أسعى لعينيك يا سيدة العيون البعيدة...

www.alkottob.com

تكور الكون الموشيَّ بالضباب واستدار السديم، وتوقف قلبي في تلك الوعور وبكى.. أواه أيُّ دمع مفجع بكى.

هل حدث به الناي المغرد في الليل البهيم، هل رواه مليك الشعر في عرش اليمام أم سجعت به حسناء في نظمٍ رخيم.

إذ أسعى لعينيك يا سيدتي...

عيون الصبايا في كل فج وجلات، وسكون الليل في كل عمق يتأوه.

ولحن الشبابة وهم....

وضحى الأحلام موت

وحنين النوق سراب.

***

يوم طلبتُ عينيك يا سيدتي وعدوت نحوهما، عدوت على شجن في صباحات الحياة ومشيتُ كالظلال على الدروب، وتلوت أناشيدي كمثل الصلاة.

يوم طلبتُ عينيك...

أنشدتُ أغنيتي الأثيرة ونفختُ نايّ ونقرتُ عودي وضربت دفي، وتراءت لي في السراب الأُمنيات....

ذاك فردوس وعلى الظل فتاة، وهنا نهرٌ وعطر غريب.

وكان الليل شاعراً ينظم للحياة، وكان الفجر أندلساً خصيب.

ومضيت أقلِّب سفر الزمان الكذوب...

أواه... لقد كذبتني عيناك وأضلني السراب، وابتلعتني المتاهة وغيبني الجب لكنني قطعت في عينيك فضاءً بعيداً وليس لي أن أعود من هذا الرحيل المرهق فكلنا يا سيدتي يمضي إلى حيث تقوده قدماه وهولا يعلم، نمضي وليس لأحدنا أن يقف في منتصف الطريق ليرنو

www.alkottob.com

بعينيه إلى المسافات الطويلة التي خلفها وراء ظهره في سباق الحياة الرهيب وإلى المسافات التي سيقطعها من التراب إلى التراب.

نمضي وليس لأحدنا أن يتساءل هل يعود أم لا يعود.

***

في فجر عينيك يا سيدة السراب الذي يغشي العيون، ذهبت بعيداً في رحلةٍ مرهقة، طويتُ ملايين السنين الترابية.....

طويت ملايين السنين الترابية والكلمات تتزاحم في نفسي كالإعصار تتفجر في شراييني تفجر البركان وأكاد أن أموت ودابتي لا تكف عن المسير.

في فجاج عينيك عدوت طفلاً سره كظيم، روح من جنة الفردوس أهبطت في كونٍ أثيم خطوت فيهما وكانتا كمثل المتاهة.

في فجاج عينيك حُشر الناس للسُرى وفيهما ظمأٌ عظيم، رحماك يا سيدتي إننا في العير التي أقبلت تسعى في صميم السديم.

إننا ركب القافلة المسحورة، نضرب في التيمور بغير هدىً ونشق الأهوال تلو الأهوال.

تعالى بيننا العويل والصياح وانبرى الشقاق قائد رحلتنا المشؤومة.

يوم تواعدنا تقاطرنا من كل فج وغور والتقينا فضربنا بيننا عطر منشم.

لقد أخذ البريق منا ما ادخرناه من حكمة وتلألأ السراب يدعونا للمسير، فسرنا يتأجج في نفوسنا الجهل والطمع، ومضينا بلا زعيم يقودنا ولا حيكم يحفظنا من الزلل.

أواه يا صاحبة العيون التي لها علمٌ في كل مأساة، لقد خطوتُ فيهما حتى الهلاك، وأبحرتُ فيهما من لحظة الميلاد وسأجري مع

www.alkottob.com

الريح حتى الإحتضار.

ذلكم زماني يا سيدتي....زمان اليأس والحب والبكاء والشعر.

ذلكم زماني زمن القصيد والنواح، تقلدت فيه بربابتي العطشى وضربت عودي ونفخت مزماري وتلوت قصائدي، بلغت ارزل العمر وهممت أن أبوح ببعض أسراري.

لم يكن الزمان فجراً قدسياً مشعشع الأنوار، لا ولم يكن المكان ضفةُ نهرٍ عجوز يعربد ما بين الغصون والظلال.

وبساط الأرض لم يكن بساطاً من النجم والعشب والأزهار، لا ولم تكن سمائي سماء للطيور وللعبير.

ولم يكن في خاطري أنني في حضرة قداس ولم تقبِّلني العصافير ولم تنشدني القمارى، وذلك النهر لم يملأني من شجوه القديم ولم يحتضني كالسفائن ولم يطعم سكوني ببعض تأملاته وأحلامه وصمته الأزليّ.

ذاك زماني زمان الرحيل.

لقد تعبت روحي وتعطل مزماري وتلاحقت أنفاسي وتشوهت أفكاري.

الرحلة يا سيدتي انطلقت في مجاهيل العتمة والضباب الذي لا يفضي إلا إلى عتمة أخرى وضباب آخر..

ما هذا السديم يا سيدتي.. لكأن بصري معصوب فلا أرى إلا خلاءً أبدياً فسيحاً يتعطل فيه الحس من الهول والرعب ويتجمد فيه الكلام من الحقارة والضعف والإنكسار.

لكأننا يا سيدتي في غبابات الحياة نجهل من نكون وهذا الكون من حولنا ما يكون.

لكأننا في قلب إعصار يحملنا كالريش من مكان إلى مكان وقد

www.alkottob.com

تعطل فينا السمع والبصر.

ذاك زماني يا سيدتي زمان السأم والتكرار.

بيد أني لك ولعينيك أسعى وأمشي، في الضريح الكبير أمشي، في غابة الشواهد والحزن والفناء أمشي.

أمشي وروحي تعوي في كل المواسم ونفسي تنوح كالثكلى.

أشق قفراً فلا يقضي إلا إلى قفرٍ آخر أبشع وأكثر وحشة ولا سبيل لابن السبيل إلا السبيل، وليس للراحل إلا الرحيل.

ليل يعقبه صباح وصباح يعقبه ليل، وأنا بينهما كالذبيحة المعلقة والناس من حولي يضحكون ويفرحون ويتزوجون ويتناسلون لكنني لا أسمع إلا هدير الدماء والعاصفة ولا أرى سوى شبح المأساة.

الناس من حولي يصنعون أفراحاً من العدم، يغنون ويرقصون ويتراشقون بالزهر والنَّوار.

يعشقون ويكرهون، ويروِّج بعضهم لبعض كأنهم أرباب..

البعض منهم لا يملك قوت يومه فانحاز إلى صف المتفرجين ذوي المتربة والبعض منهم يغوص في لجة الثراء والترف يأكلون ويشربون ويتنعمون على ضفاف الأنهار والبحيرات وفي القصور التي تشرئب بجهامةٍ وقسوة. بعض النساء يقفن على النوافذ والأبواب من الصباح حتى المساء يلتقطن سخافات العابرين ويتناقلن ما يبثه التلفاز من الإعلانات والدعوات التي تحض على المزيد من الإستهلاك والنهم.

وبعض النساء يقفن على مسرح الحياة المضاء بملايين النجوم الصناعية يتزحلقن كالسحالي في الصحاري الحامية، تضغط على أجسادهن الأردية العاصية الضيقة وتغيب ملامحهن تحت وطأة الأصباغ والأقنعة الشمعية استعرن من القطط السائبة موائها ووقفن يعربدن وقد تلصصت على أنوثتهن متبذلة عدسات المصورين وعيون

www.alkottob.com

العابثين المترفين وسط بؤرة مشتعلة من الشهوة والتهريج والتهليل والتصفيق.

الناس من حولي مهرجون ومهرجات، عابثون وعابثات، يمشون في موكب المأساة يغنون ويرقصون، يرفعون هاماتهم في خيلاء ويهتفون.

يمشون وقد تحدبت ظهورهم من الأوزار التي يحملونها، أوزار الحياة التي تنحني من وطأتها الأعناق وتقشعر من هولها الأبدان.

لكنهم في لهوهم وعبثهم لا يلتفتون إلى حقيقة ولا يعيرونها أدنى اهتمام، بل هم في غيِّهم يسعون كما تسعى البُهم وقد تشاكل الإنسان والحيوان.

ذاك زماني يا سيدتي.

زمن الإنسان الذي شاكل الحيوان في شراهته وسفالته السفلى زمن الإنسان الذي تخلى عن ربوبيته العليا ليغوص طائعاً في الوحل والطين.

والسلم معقودةٌ في صميم التراب وليس لها قرار مكين، ولم يزل يتسفل على عبتاتها هابطاً هابطاً حتى أسفل السافلين.

ذاك زماني يا سيدتي.

زمن الذي لا هم في دنياه غير مخادع النساء وما حوت القدور والقوارير فليس ثم ما يشغله في الكون إن هو أشبع فحولته ومعدته.

فلكأن الحياة فراغ ولكأن الكون عدم ومن بعده الطوفان.

ذاك زماني يا سيدتي.

الناس في قافلته الطويلة يتصارعون كالغيلان، وكالثيران، يقتتلون بضراوة الوحوش على امرأةٍ أوكرسيٍ أو درهم.

لا يرون في الكون الكبير الذي لا تحده المدارك وتخشع من

www.alkottob.com

هوله النفوس إلا غنيمة كبيرة يود أحدهم لو يستولي عليها دون الآخرين.

يتنازعون على السراب ولا يعلمون، وهم في غفلتهم وهذيانهم يمضون إلى آخر المأساة، غير أنهم لا يقفون ولو لحظة ليتفكروا في الذي بين أيديهم، في هذه الحياة الغريبة المهيبة والتي لا نعلم من أمرها إلا ما كشفه الله لنا.

ذاك زماني يا سيدتي.

زمن العبث المخيم على النفوس وعتمة البصائر التي بلغت أقصاها، زمن الذين يدعون الحقائق الخالدة تنوح على وحدتها وغربتها في الكون ويتكالبون تكالب الجراد على الضلال والأكاذيب الزائلة.

يتهافتون على الأشكال والصور وينسون مبدع الأشكال والصور وينحتون من ملذاتهم آلهةً يعيدونها ويروجون لها آناء الليل وأطراف النهار.

ذاك زماني يا سيدتي.

زمن الذين دفنوا جوهر الإنسان وجلسوا على قبره يندبونه ساعة ثم وقفوا يعربدون على حوافي قبورهم ولا يعلمون.

ليلٌ يعقبه صباح وصباح يعقبه ليل.

وأنا من أكون يا أيها الرعد القاصف في الليالي الممطرة، من أكون يا أيها الوهج العاصف.

من أكون يا أيها الليل المتثائب على الدروب المقفرة.

فيا ليت لي صوتٌ قويٌّ يقتحم النفوس ويتردد على تخوم الكون كالصدى.

ليت لي صوت قويٌّ يهز السامعين في كل مكان فأحدث الناس بلغة سماويةٍ معطرة، وأروي لهم في ليلةٍ مقدسة عن كائنٍ علويٍّ هوى

www.alkottob.com

كالصمت في المقبرة.

وغامت الرؤيا فليس في الكون مصباح، والطوفان القديم عاد كرةً أخرى بوجهٍ أكثر ألماً وحزناً ووحشة.

وعلى الدروب أشباح وفي الوعور غيلان.

ليت لي صوت قويٌّ يهز السامعين، فأحدث الناس لا بلغة الشعراء المترفة ولا بلغة العلماء الحيية الخفرة ولا بلغة الفقهاء الحاكمة بل بلغة الإنسان الذي أضربه الاشتياق فتكلم.

أواه يا سيدتي.. ليت لي أن أجلجل مثل الرعود ومثل العواصف والبروق فأقصف كالفجر ذي الأنوار، هذي الفجاج وتلك الهضاب وأغسل هذا الوجود وأكنس تلك التفاهات السخيفة المكررة، وأحطم تلك القلاع والأكاذيب المسورة، وأدك أركان الظلام بضربةٍ كالزلزلة ثم أعتذر إلى الله وأطلب المغفرة.

آه يا سيدتي لو تعلمين كم يعذبني الكلام، فليس كل الكلام بسواء.

فبعض المفردات من النار وبعضها من صقيع الصقيع، وفي القلوب ما هو باردٌ كالوكب المنطفئ، وفي القلوب ما هو بركان متفجر يتحدر حمماً وناراً يميناً ويساراً.

فبعض الكلام إذن يغرف من نُتف الثلج، وبعض الكلام يغرف من عيون الحمم.

وأنا يا سيدتي أهرول ساعياً من الكلام إلى الكلام، أبحث عن لغةٍ وسطى، عن لغةٍ لا كالثلج ولا كالنار، عن كلامٍ لا كالكلام.

أبحث عن كلامٍ من بردٍ وسلام.

شقيٌّ أنا بتعاستي يا سيدة هذا الحديث، بالشوق أحمله كالأمانة التي أشفقت من هولها السموات والأرض، بأوزار الحياة التي تكبلني وأجرها مرغماً على ثقلها لأطوق بها الدنيا.

www.alkottob.com

بالشعر ينظمني وينثرني آناء الليل وأطراف النهار، يبعدني ويدنيني يرفعني إلى علياء السموات ثم يرميني، أتلوه كصلوات عابدٍ في موهن الليل وكعاشقٍ يبوح بسره لكائنات لا يراها إلا هو.

لكن الرياح لا تحمل صوتي إلى حيث يُسمع، والناس في دفء مخادعهم لا يسمعون انتحاب القلوب المتوجعة في صميم الليل.

صوتي يا سيدتي مخنوقٌ في كوبٍ لا يُسمع فيه إلى الفحيح، في دوامةٍ ترغي وتزبد تتمزق فيها الحناجر وتتلاشى الكلمات، لكأنني أتكلم من قعر بئرٍ سحيق فلا أكاد أُميز صوتي وفحيح الجدران.

بل أكاد ألاّ أعرف صوتي ألاّ أعرف نفسي في صخب الحياة الذي لا يرتاح إلى نهاية ولا يستنيم إلى لحظةٍ من لحظات الهدوء.

أنا كوكبٌ منفلت يا سيدتي، خرجتُ من مداري ومجرتي لأطارد في الخلاء الأبدي الفسيح نجمةً سرابية يفصلها التيه والتيهور العظيم عني بملايين السنين الضوئية.

معتمٌ أنا يا مليكتي حتى الإنطفاء والوحشة ومتعبٌ حتى التلاشي وحتى الفناء.

أواه يا مليكتي.. أنا سالك الدرب الحزين والتائه الأبدي في الظلمات بلا مسرجةٍ ولا مصباح، وهو الضلال القديم إذن واللعنة الكبرى والوهج البعيد أطلبه وأجري إليه سعياً والهلع المروِّع يعظم في قلبي حتى الإغماء والهذيان، لكأني يا مليكتي طفل يهرع في غابة ترقد تحت ليلٍ مضنٍ وسقيم وتتراقص فيها الظنون والأشباح.

لكأنني يا مليكتي ذلك الخوف الذي لا ترقى إليه المدراك وليس بوسع أرقى الكائنات حساً وفناً أن يطلّع على كهوفه المظلمة.

وإذن فمعذرة إذا خاطبتك بلغةٍ تكاد من وحشتها أن تستغيث فلستُ أجهل أن مثلك لا يخاطب بلغة الكهوف التي طُمرت في باطن الأرض بيد أني يا مليكتي لا أكلمك بلغة الكون الذي أسكنه بل بلغة

www.alkottob.com

الكون الذي يسكنني أكلمك بلغتي.. لغة المخاض العسير والمأساة، لغة الطائر الذي يخرج من هامة القتيل لا يفتأ يقول اسقوني اسقوني حتى يشرق بالدماء ويموت مضرجاً بصحيته المفجوعة.

أكلمك بلغتي يا سيدتي.. لغتي التي لا أدين بها لترف الحياة، فلغتي ليست من ترف الحياة في شيء.

أهمُّ بقول كل شيء، بقول مالم أقله لأنسٍ قط، وبين ما أقول وما لا أقول بُعد المشرقين، ألأنَّ كبت الكلام يورث العيِّ، أم أن رحلة الكلمات من الصميم إلى الشفاه أطول مما نتعلم، فيها تموت كلمات وتحيا كلمات، أم أننا لا ننطق إلا بعض حروف الأبجدية التي يحيط بها القيد، أم أن الشعور لغة أخرى والكلام لغة أخرى وشتان ما بين اللغتين.

أواه يا مليكتي لو أن بوسع إحساسي أن يزكي نفسه بين يديك، وإذن لرأيت شيئاً عجباً لا تجود بمثله الكلمات ولا تعبر عنه أذكى الأحاديث و لاأفصح اللغات، ولا العصافير إن غردت سحراص ولا البلابل إن شدتْ في أبهى التلال، ولا المليحات إن خطرن في عُجبٍ ومشين بانسياب كالظلال لا الشجن القادم من أقصى الكون تحمله المزامير فتنشره بين السماء والأرض ولا رقص العذارى في الضواحي المترفة وقد فردن الأيادي ونشرن الشعور وسبحن في لجة الألحان كالأفراس في الحلم.

لا ولا الرياح إن غضبت، ولا السيول إن هدرت، ولا البروق إن سطعت ولا الرعود إن قصفت.

أواه ياماليكتي ليس في الكون لغة تسبرغور القلوب، فما بين أغوارها السحيقة المستوحشة وسماواتها البعيدة المتحفظة لا تطير الكلمات ولا تحلق.

قد دخلت لجة عينيك يا سيدتي وخطوتُ فيهما بعيداً ولكن.. هل بعد السراب إلا السراب، أحقيقةٌ لعينيك تلوح من بعد السراب وهل سأظل أجري وألج الشعاب والمتاهات وتظلين أبداً يا مليكتي كالسراب

www.alkottob.com

الذي ظنه الظمآن ماء.

على أنني في البدء تبعتُ النداء ولم يكن النداء معلوماً، وكانت الآفاق غيوماً تبتلع الرؤيا وتسد منافذ النور.

وحيداً كنتُ ولم أزل وقد تشعبت أمامي الجُدد فأضحت نسيجاً مروِّعاً لعناكب خرافية، وأنا الغريب والضيف الوحيد، أمامي وخلفي غيب المتاهات. لم يكن العود محموداً ولا المضي محموداً، لكنني مغامرٌ طائش اتلفت كل شيء ولم يزل بوسعي أتلاف المزيد.

مغامرٌ غرٌ أنا يا سيدتي وفارسٌ سيفه من خشبٍ قديم، هزمتني ظنوني وأوهامي وأتلفتْ مهجتي آمالي الكثيرة وأحلامي.

مكسورٌ يا مليكتي ولمَّا أبح الحقيقة بعد، فهل تأذنين لفارس الظنون والوهم فارسك الذي يمتطي دابةً عرجاء ويشهر سيفاً خشبياً قديماً. يحارب به طواحين الهواء.. أن يرفع لسموكِ انتصاراته الوهمية، وزبدة حروبه وبطولاته وهزائمه وانكساراته.

أتأذنين يا سيدتي لفارسك ذي السيف الخشبي والدرع الورقية، ولمَّا ينضُ عن بدنه بعدُ لباس الحرب وحسك الحروب والإقتتال العنيف، أن يمثل بين يديك مزهواً ببطولاتٍ خلتْ، وبطولاتٍ في الطريق آتية ليتلو عليك بعضاً من نشيد الفارس الذي تذكَّر حبه إذ دنت من جسده الرماح تطلبه قوتاً لها، وهمَّ بتقبيل السيف الذي غاص في لحمه حتى احمرَّ من الدم، لأنه برق كابتسامةٍ ظلَّ يحملها في قلبه وجعاً كحد الحسام.

أتأذنين يا سيدتي لفارسك الحزين أن يلقى على سموك آخر النشيد وآخر الهذيان، فالسفر إليك لا ينتهي والحرب لم تضع أوزارها بعد ولكنها استراحة المحارب التي لابد منها، استراحة الفارس الحزين الذي ظل يجالد الطواحين والغيلان والأشباح حتى تثلمت سيوفه وتكسرت رماحه وكلَّتْ سواعده.

أتأذنين يا سيدتي لفارسك المحارب بوقفة قصيرةٍ بين يديك ثم يضرب في الأرض راحلاً كعادته، فليس لنهاية الرحيل أجلٌ معلوم،

www.alkottob.com

والسفر الأبدي يبدأ منك وينتهي إليك وما بينك وبينك خلاء أبدي متسع وفسيح، وبيدٌ موحشةٌ تسكنها الغيلان والأشباح يهلك فيها الراحلون ظمأً وإشفاقاً وخوفاً.

سلامٌ على البيد التي طويتها والبيد التي لم تزل أمامي...

وعلى السفائن التي ألقت مرساها وعلى التي لم تزل في سيرها ومجراها، سلامٌ على الدروب التي سلكناها والبيوت التي هجرناها، والدموع التي ذرفناها.

سلامٌ على تلك البوادي وكهوف الجبال، على الوديان بقفرها وخضرتها ويباسها وخصبها، على كل غورٍ ومنحدر وكل جرفٍ وتل.

على عرائش الليل المتلبد المزحوم، وعرائس الفجر بين مقاصير الأرض والسماء ومرابط أفراس النجوم والنجوى والنكد الطالع من سديم السديم....

على الصحراء والبحر والإعصار، والريح التي تعصف والغمام والمطر. على البرد يحثو جلود الغرباء صقيعاً ووجعاً ووحشةً وقنوط، على نشيج البكاء يخنقنا كأنشوطة متدلية من سقف بعيد أو أرجوحةٍ من أراجيح الشياطين سلامٌ على ماضى وما سيأتي، على ما كان وما سيكون.

سلامٌ على الأحزان التي تبخرت واندثرت وتلك التي ترسبت فأضحت في قرار مكين.

سلامٌ على الخطا التي مشيناها والخطا التي سنمشيها، على الأناشيد التي تلوناها وتلك التي سنتلوها.

على الأكنة الصمّ التي جلوناها وتلك التي سنجلوها.

سلامٌ على مافات وما سيفوت، على السراب الذي أضلَّنا والسراب الذي يتربص بنا.

وقالت دابتي التي حملتني إليك قفراً بعد قفر... أنِخْنِي يا ذا المتشرد الذي ليس لغربته نهاية... فهذا مناخى وهذا مراحى والسلام.

www.alkottob.com

وقالت .... ترجل عني يا صاحبي فهذا أول السراب ثم بركتْ.

بسم الله طاب مناخك ومراحك فابركي واستريحي وارتعي...

سأطوي الفجاج بعدك آسفاً وسأمضي فتلك عادتي، وسأحملك ماضياً جميلاً ومحزناً مثلما حملتني، ولئن أضناكِ الرحيل وهدّك التعب فلقد أضناني وأتعبني، ولئن أوجعك السُرى وأمضك عقم المتاهات فلقد أوجعني وأمضني عقم المتاهات، ولئن استبدَّ بك الشوق والحنين إلى القطيع والمراح، فلقد قتلني الشوق أو كاد، فأنا مثلك أيتها الدابة الحزينة.... مثلك قد تعبت من الرحيل وسئمت من السفر، وعافت نفسي الطرقات والضرب بغير هدىً في صميم البوادي والفلوات، مثلك يا صاحبتي أشتاق وأشتهي ساعةً على ضفة نهرٍ أو ساحل بحر أو مرجٍ أخضر مثلك أيتها الرفيقة البائسة يكاد يقتلني الظمأ والشوق إلى حضن أمي وراحة أبي.

مثلك يأخذني الحنين إلى البعيد البعيد، إلى الغدران والبحيرات، إلى البرك الخريفية ببجعاتها ورهواتها، إلى السدر والسيال والحراز والكتر واللالوب والريحان النابت، والطلح والطنضب والأراك على جوانب الخيران والمستنقعات مثلك يا صاحبتي يأخذني الحنين إلى صبايا لاهيات، وعجائز ينسجن الشمال وشيوخ ينحنون للماضي في خشوع ويتذاكرون أيامهم في ظلال الرواكيب.

أواه أيتها الدابة البائسة... أواه يا صديقتي الحزينة فلست أعاتبك إذ وقعت في براثن الردة والكفر بالسفر، كلا يا عزيزتي فلست أنا من يحاسب على الكفر بعد الإيمان، ولست أنا من يعاتب الصديق إذا ما توقف يوماً في منتصف الطريق.

بيد أني أيتها الدابة العجوز.. أيتها الرفيقة المتعبة... ما تعودت الوقوف طويلاً أمام المرآة لأرى على وجهي أخاديد الطريق وعبرة الفجاج والسفر بل ما تعودت أن أرثي لنفسي أو أفرح لها فلست أعرف معنى الرثاء ولست أعرف معنى المديح أو الهجاء.

بل لا أفرق بين الخُسران والربح، والهزيمة والنصر والحقيقة

www.alkottob.com

والحلم لا أفرق بين الأضداد فسيان عندي كل شيء.

فلربما آخذ أنفاسي وأستريح بين أفياء ظل يتيم وسط جحيم الصحراء غير أني عاجلاً أم آجلاً أمضي، فتلك شيمة من يبحث في الأرض عن وطن... وواقع الأمر أن لا وطن فوق التراب أو تحت التراب سوى القبر والكفن. لكنه الحلم أيا دابتي العجوز... الحلم الذي أقلك وأقعدك وقادك وأوقفك والذي سيظل يقلني ويقعدني ويقودني ويوقفني، وسأظل ألهث خلف سرابي الذي يناديني ويسحرني وأعلم أنني لن أصل غير أني أكره الوقوف ولو أن المضي لا يقود إلى للهلاك.

هذا أنا يا مليكةَ الأشواق التي ملّكتها أزمّتي وألقيت في مجراها سفينتي وأمانتي.

هذا أنا يا سيدتي سيدة السراب والضباب ومليكة الظنون والوهم.

هذا أنا فارسك الذي تضخم في جوفه الحلم فأوحى له ما أوحى.

لقد كان النداء قوياً كالهاتف العلوي وأنا بين الحقيقة والحلم أعيش كالصوفي الذي يرى ما لا تراه العيون ويسمع مالا تسمعه الآذان ويرجو مالا يرجوه الآخرون.

كالدرويش المجذوب أنا لعوالم أراها ولا أراها وحقائق أعلمها وأجهلها وطوائف من الكائنات تسحرني فأتبعها ولا ألحقها.

في البدء كان النداء يا سيدتي في صميم الملكوت الإلهي المهيب، وفي الناس من سمع النداء وكنت أنا ممن سمع.

وفي الناس من باع واشترى، وفي الناس من استاق واشتهى ثم كان الخسران.

وكنت أنا أول الخاسرين... كنت أنا أول من سُلبتْ منه أعلام

www.alkottob.com

البطولة ودفعتْ إليه أعلام الهزيمة...

لكنني وأنا أسعى إليه يا سيدتي تماثلت في نفسي ألوان الحياة، فطعم البيع كطعم الشراء وطعم الربح كطعم الخسران وطعم البطولة كطعم الهزيمة.

وأنا أسعى إليك يا سيدتي رأيت العالم في اضطراب عجيب فلا حدود ولا ماهيات لا سماء ولا أرض، لا فجرٌ قدسي ولا ليل موشح بالأسى.

وأنا أسعى إليك يا سيدتي لم أرثيَّ دموعاً ولا ابتسامات لا مراثى ولا أغنياتي لا يطنُّ في أذني إلا نداءك يا سيدتي ولا أرى في مجاهيل الحياة إلا السراب.. سرابك يا سيدتي.

حدثني الهاتف العلوي قال...

يا صاحب الحقيبة الحمراء..

يا أيها البدوي المعفر بالتراب والظمأ والحزن..

إخلع نعليك واقترب...

قلت إني قد تركت قومي يقتتلون في وادي السراب، وكنت أصيخ السمع إلى نداءٍ مجهول، فخرجت أطلبه بكل عنفوان الفتوة والشباب لكنني قد ضللت الطريق، وطفقت أخوض في لُجَجْ السراب.

قال هو السعي الدؤوب، وكذلك تستوي الدواب.

لهفي عليك يا صاحب الحقيبة، إنما أنت ترابٌ يطلب التراب. والقلب الذي يعانق هذي الحياة.. القلب أيها الهاتف؟

والكلمات التي ننفخ فيها من روحنا وأشواقنا، والحب الذي نطلبه من كف امرأةٍ لا نعرفها ونحن يومئذٍ غرباء نطرق الأبواب في آخر الليل. ودماء الشهداء العاشقين أحباب الله، وقد بلغ سيل الدماء الزبى والساهرون على كل نجمٍ، الناشدون في كل غدٍ أملاً وأمنيةً من أماني الحياة.

www.alkottob.com

قال إني أرى في عينيك إشفاقاً لا يليق بمن يسير مع الحياة. أنت أكثر السالكين في الدرب جهلاً يا صاحبي، وأكثرهم خوفاً وحزناً وإن كنت أقلهم غفلةً وطمعاً في النجاة.

على رسلك فمن يجدف نحو الحق في الدنيا، إنما يجدف في بحرٍ أهلكت أمواجه الأولين واللاحقين، والله يخرج من يشاء من الظلمات إلى النور.

يا أيها الآتي من مكانٍ بعيد، أيها القادم من الغيب..

سمعتك تحدثني عن الغفلة، فما الغفلة؟

قال هي أن تكثر النظر في ظهور الآخرين فتنسى أن لك ظهراً كظهورهم، وأن تسرف في الحياة فيباغتك الموت.

وكيف لا أغفل ومن طبيعتي النسيان، بل إني لأميل إلى النسيان من الذكر وما من عاداتي الكثيرة عادةً تشقيني كالهوى، فبالهوى عصيت ربي وكنت أظنني لن أعصى، وبالهوى وكأتُ قلبي وذبحته كالأضحيات.. أجل يا صاحبي إنما الإنسان يحيا بالهوى.

قال زدني علماً بجهلك أيها المسكين وتكلم.. وإن لم تسعفك الكلمات فاجلس وانتحب قليلاً ريثما تستريح وقل ربي احلل عقدةً من لساني. وبارك دموعي فإني قد حملَّتها ما أشفق منه لساني وقصَّر عنه بياني.

والرغبة التي تفتك بالكائن الحي، وشهوة الاندماج في الجسد الآخر حتى الرعشة والموت، وحنين الذكران إلى النسوان، وحنين النسوان إلى الذكران.

قال هو الطين يحن إلى الطين، والرغام يشتهي الرغام، ومن النسوان أمشاجاً من نارٍ وماء، وكذلك الذكران، وكلاهما يطفئ الآخر.

فما الحب إذن ياسيدي البعيد والقريب، والشوق الذي أحمله كالأمانة ووجيب قلبي أسمعه كنواقيس الكنائس البعيدة.

قال فُطر الإنسان على حب الخلود، فلما كان الموت ما انفك

www.alkottob.com

يبحث عن خلوده وكان سعيه مشكوراً إذ أخرج من نفسه الحب، والحب كالروح الذي يسري في الكائن الحي، فهو عدو الفناء وأوفى من صحب الخلود، ولذلك فالإنسان كائنٌ خالد، فآدم لم يمت وكذلك الأم حواء، فانظر إلى يمينك أو يسارك أو فانظر بين يديك إن شئت فسترى آدم وسترى حواء، إنك أنت آدم فابحث عن حوائك يا هذا ودعني بسلام.

قلت زدني..

قال يا صاحب الحقيبة، يا أيها الطفل الشقي الذي لازال يبحث في وجوه النساء عن وجه أمه، تلك هي الحقيقة.. أنتم معشر الرجال لاتكبرون أبداً، فأنتم أكثر خلق الله إحساساً بالطفولة، بل وبمخاوف الطفولة وأوهام الطفولة، وإذن فليس كحضن الأمهات مكاناً آمناً تعتصمون به من شبح الحياة.

أنتم أيها الرجال لازلتم تشعرون بحنين غامض ومبهم إلى ذلك المكان الصغير الذي خرجتم منه، ولذلك فأنتم تبحثون في كل النساء عن أمهاتكم فحبيباتكم وزوجاتكم وبناتكم لسنَ في الحقيقة التي تسكن بواطن نفوسكم سوى أمهاتكم، ولقد يحتمل الرجال أن لايكون لهم آباء ولكنهم لا يحتملون أن لا تكون لهم أمهات.

قلت وما المرأة؟

قال اسمٌ من أسماء الرجل!!

قلت وما الرجل؟؟

قال اسمٌ من أسماء المرأة!!!

إزددتُ جهلاً من حيث أردتُ أن أعرف، فزدني علماً يا سيدي وتلطف بنفسي فإنني لا أعرف.

قال أغمض عينيك وتخيل ألا امرأةً في الحياة الدنيا، وكذلك الرجل، فلما أغمضت عيني، هالني ما رأيت واقشعر بدني حتى الإغماء إذ رأيت فيما رأيت... شبحاً بتقمص رداءً أبيضَ ويسير

www.alkottob.com

مستوحشاً في مسوح الظلمة الشاحبة، وكان الخلاء من حوله تيهاً لا تحده الأبصار وموحشاً حتى لتكاد تُسمَعُ فيه الأنفاس من مكانٍ بعيد..

وطفقتُ أرقبه وهو يزرع البيداء مشياً ثم عوداً على بدأ، حتى ليكاد يبين ولا يبين، ويبدو ولا يبدو، وعاداني فسرت إلى نفسي المطمئنة عدواه فسمعت كأنما قلبي يُقْرعُ بمطرقة غليظة، ثم شعرت كما لو أن نسراً ضخماً سد بجناحيه أرجاء الفضاء فأظلمت الدنيا وغامت الرؤيا وأطفئت الشمس ورأيت نفسي كما لو كنت أعدو وأصيح بهلعٍ من تحت جناحي النسر الأسودين وإذا بالنسر يباغتني بقوةٍ رهيبة وأنا بين مخالبه كمزقة اللحم الصغيرة فلما اشتد على نفسي الأمر، وبلغت من الرعب أقصاه، هززتً رأسي بعنفٍ وفتحت عيني ونظرت حولي بدهشةٍ غريبة فلم أصدق أن مارأيته وأحسسته محض وهمٍ وخيال، وأرخيت سمعي فإذا الصوت البعيد يقول.. المرأة والرجل، الرجل والمرأة، هو الإنسان كلمة الله في البدء وبورك في الطيبين من نسله إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين.

قال إني أسمعك فتكلم...

بين كلامي وصيامي عن الكلام، توجد أرضٌ حرام، منطقةٌ وسطى لا تمشط جوانبها الحروف، ولا تُعَبِّدُ مسالكها قافلةُ الكلام.

فبأي حرفٍ استنطق السكون والحروف كلها خواءٌ ومحض افتراءٍ وتكلفٍ والكلمات هي السجون.

الحرف جلاد المشاعر، والعبارة نعش، والدفاتر أرماس وكفن..

بين الكلام واللاكلام تولد الأحاسيس كولادة البرق، حمراء دامية، مشحونةً بحدة النزيف والألم كاشتعال السيف مسلولاً ويُغْمَدُ من جديد.

كالطفل يعود مسرىً وما استيقنت أمه.. أما زال في بطنها أم وليد؟ قال هو الحرف إذن لم يزل يئد الأحاسيس حتى أضحت صحفاً موضوعة، وبلاغةٍ مصنوعة، وعبارات كثيرة تتداولونها فيما بينكم تداول المتاع، تحملونها ماشئتم من ألوان الزينة والبهرج فتُخدعون بها وتظنون أنكم قد أتيتم بجديد، وما هو بجديد، إن هو إلا التكرار مستتراً

www.alkottob.com

تحت غطاءٍ لا يلبث أن ينكشف لمن أوتي فهماً عميقاً وبصراً جديداً.

قلت هل يعقب شتاء الكلمات هذا ربيع فيه يزهر الحرف ويخضر؟

قال بلى إذ ليس الشتاء فصلاً سرمدياً، وكذلك الربيع والصيف، إن هو إلا غفوة الطبيعة، على رحابة الكون، واستراحة الشجر الحمول على وسائد الدنيا، وكذلك تحيا الرياحين والأوراد ما بين تألقٍ وذبول، إذ ليس الموت عدماً، كما أن الشتاء ليس بخاتم الفصول.

هل أسرد على سمعك فصلاً من شجن الكتابة...؟

قال تكلم فأنا مصغٍ إليك، هاتِ أسمعني ما تقول الكتابة بين كآبتي وكتابتي أهاجر كالدراويش في الحضرة المشهدية، وكثيرةٌ هي العيون، ويا لفتنتها، لقد مسني منها ألمٌ عظيم، فسلامٌ عليها بقدر قسوتها علينا، سلامٌ على تلك العيون.

سلامٌ على ما كان وما سيكون، سلامٌ على غرباء الدنيا من كل أرض وعلى كل فجٍ يكونون، سلامٌ على غرباء الحياة حيثما كانوا في بلادهم أم في بلاد الآخرين.

سلامٌ على تلك العيون...

والشعر الذي يشرب من أريج الضفاف البعيدة، الشعر الذي لا يتوسده الرجال العابرون، والشفاه الطافحات بالخمر، الشفاه التي كأنها خضبت بدمانا ونحن ميتون.

ونحن الحالمون في كل منفى بآنسةٍ لها شكل الوطن.

ولقد يسري إلينا النسيم بعطرٍ ذات مساء، ولربما نسمع وسوسة الحُلِّي مشربةً بحفيف ثوبٍ تعابثه الرياح، أو ربما تلتقط أسماعنا صدفةً عبارة حبٍ على أثرها أغنية لعاشقةٍ من زمنٍ رومنسي غبر.

ولقد يباغتنا الحب كما باغت النهر ساكن الضفاف، فيفيض على قلوبنا ويغمرها ونحن يومئذ غرقى، واليوم لا عاصم من أمر الله.

www.alkottob.com

لكننا في الصباح الآتي وقد بدا لعيوننا السراب، يمر بخاطرنا تواً أن الحياة كلها محض سراب، فالعطر الذي نستافه في الأصيل وهم، ووسوسة الحليّ وحفيف الثياب وهمس العذارى محض وهمٍ وأضغاث أحلام، وسنذكر فقط، أنه بالأمس الذي مضى، في مساءٍ لا كالمساء عبرت بأكواخنا الحقيرة، فاتنةً حمراء... حمراء... حمراء.

ولأنني غريب، ولأنني بلا وطن، أبالغ في حبك يا صاحبتي.

ففي مكانٍ ما من ظلمات نفسي أحمل بيتاً فسيح الجنبات، وامرأةً في داخل البيت تطهو الطعام، ولها وجهٌ يضيء.. ربما هي النار تصطخب من تحت القدر ألقت عليها رداءً من الوهج، أو ربما هو نورٌ من عند الله.

وضريح الشيخ الكبير أسفل البيت... أين من عينيَّ ذاك الضريح.

لقد قيل لي فيما مضى.. إن الشيخ أوراده وصلواته المحمدية، ثم مات وكأن لم يمت وهو لم يزل رهن مصلاته العسجدية، ربما كانت في نفسه وهو يجود بها رغبةٌ بأن يُدفن قريباً من دفء البيت، لكنهم في مطلع الصباح حملوه على تلك الآلة الحدباء، وقصدوا به مدينة الأموات عند ذلك الوادي.. أسفل البيت.

في مكان ما يا صاحبتي.. أخبئُ خارطةً لوطني، حتى لا يُقال أني بلا وطن، حتى إذا الشرطي في تلك البلاد التي ننزح إليها مرغمين، ألقى على وجهي الشتائم وعيرني بأني بلا وطن.. تبسمتُ ضاحكاً من جهله، ومددت يدي إلى مخبأي الصغير، فإذا الشرطي يُصعق من هول ما يرى.. إذ يرى كيف أخرجتُ من مخبئي الصغير، وطناً جميلاً بحجم هذا العالم الكبير.

ولأنني أبالغ في حبك يا صاحبتي، فأذني لي بأن أطويك طي الشراع كخارطة وطني الكبير، ثم بسم الله أدخلك مدخلاً طيباً في قدس أقداسي حيث لا تجوعين ولا تظمئين، ولن يعرف جسدك الصغير فقر الثياب ولا الحر ولا الزمهرير.

www.alkottob.com

قيل أي لعنةٍ تحل عليك في كل ليلةٍ يا خادم القلم.

وأنا أمين سر الدفاتر، وصاحب الدواة الأمين، وخادم القلم. فمن أين أبدأ يا حبيبي، وحديث الصحبة وادٍ ذو شعب.

هل أبدأ من حيث التقينا، ذاك لعمري حديثٌ يطول، فكلانا كان في الحب فقيهاً مُعمماً، وكلانا في الحب مدرسة، ومذهب وإمام لكل العاشقين. أَوَتَظُنني قد بدأت، فخذ بيدي إذن لكي نمشي معاً على السراط المستقيم، وتوكل على الله يا حبيبي، كذلك دأب العاشقين.

ورثنا مجد عنترة بن شداد، إذ أحب عبلة بنت مالك، فكان حراً وهو يرسف في الأغلال حيناً من الدهر.

ورثنا جميلاً، وقيساً، وكُثيراً، ووروداً، فكيف إذن تدهمنا السنون العجاف وفي أهرائنا هذا الحب والمدد.

مدد يا قلمي مدد..

فلن أكف عن الحب مدى الدهر.. مدد.

ولن أكف عن البوح بالحب، إلاَّ تبح بالحب تمت، فإنما بالبوح يحيا الحب، إنما بالبوح يحيا الحب.. مدد..

مدد يا قلمي مدد...

فأنت رافدي حين تشيخ الطفولة في ملامح الأفق، وحين يعتزل النهر المسير وتأبى السماء نزولاً بكلمات المطر.

وأنت شاهدي حين يؤرقني سهاد الحب في صميم الليل، وحين القلب يئن موجوعاً من ألمٍ مجهول.

وقيل حسبنا الله لو يعلم الناس كيف حال الحالمين.

والرجال المؤمنون ألقت بهم القافلة التي تضرب في وهاد السديم، على تخوم العالم الذي يحكمه التجار، والفئة الباغية من نساءٍ كالسحالي، ورجالٍ لا كالرجال. الرجال المؤمنون ألقت بهم ها هنا

www.alkottob.com

القافلة، على تخوم العالم الذي يفر من جحيمه الأبرار.

ثم درجوا يلهون بأيامهم مثل كل البائسين، والمدينة خلية نحلٍ شطرت إلى نصفين، في نصفها الأعلى مساكن الفجار، وفي عتمتها السفلى منازل التعساء والأبرار.

والقوم يجأرون (لا إله إلا الله) لكنهم لا يعبدون الله، (وربما كنت تفكر فيمن يعبدون)، لكنه حتماً غير الواحد القهار.

وكان المؤمنون غرباء، يدقون النوافذ والأبواب، ربما كانوا يبحثون عن وطنٍ ومأوى، أو ربما كسرة خبز أوشربة ماء.

لكن نساء المدينة اللواتي يشبهن السحالي ما تعودن إطعام الغرباء. والصبية الأشرار في مفارق الطرقات، يلقون على وجوههم الحصى والحجارة لكنهم كانوا يسامحونهم ويستغفرون الله لهم.. ويستغربون كيف لم يتعلموا في مدارسهم حب الغرباء.

بيد أنهم وهم يعبرون، يُفاجأون بأن ما يفعله الأبناء هو نفسه ما يفعله الآباء، وعندئذٍ ينظر بعضهم بعضاً، ويدركون أنهم حقاً غرباء.

لكنهم يحبون على كل حال، فلقد يعيش الإنسان كما الأشجار بالشمس والماء، يضحكون كثيراً، ويبكون كثيراً، ويفرحون ويحزنون، وقد يغامر أحدهم فيحب... أجل يحب، وليس أصدق من غريبٍ يحب.. فَتَرحّمْ يا هذا، واستغفر لذنبك.

وقيل سجا الليل فكأنه حيت وقفت عيناه في دهشة الرحيل والذهول سجى الليل...

والساهرون في كل نجمٍ هذا أوان أوبتهم، فهم لأراجيح الطفولة عائدون، يتوسدون ذكرياتهم، ويغبضون على أحلامهم خوفاً من زائرٍ مجهول، وينامون... ينامون.

سجا الليل...

وآبت كل نفس لصاحبها أوبة الوليف الحنون.

www.alkottob.com

آبت كل نفسٍ، والرجال المتعبون في سبل الحياة، الضاربون ضرب العير في الصحراء، الواقفون على كل بابٍ وقفة المملوك الذي هدَّهُ الشقاء. وهذا أوان أوبتهم، هذا أوان راحتهم.

والجنود المحاربون، الرجال الذين يعملون في بسالة، الرجال الذين تنازلوا عن حصتهم في النكات الخبيثة وأحاديث البطالة.

هذا أوان استراحتهم، في الخندق الحنون.

سجا الليل...

والشباب الخائبون البائسون، الشباب الذين يقفون كلافتات الطرقات يعابثون العابرين... والغاديات الرائحات.

الشباب الذين لا يعملون، الذين لبطالتهم عابدون، وعلى السخافات عاكفون على أرصفة المقاهي، وظلمة الحانات.

هذا أوان أوبتهم، فهم مرهقون، ولسوف ينامون.

سجا الليل....

والراجفون من وجلٍ، والساهرون من وجع الحياة...

إلى متى سيسهرون؟

قل معي حتماً تزول كآبة الأرواح، ولا محالة نائمون.

سجا الليل...

والرجال الشرفاء المرهقون، من الحقول والمراعي عائدون...

وانحدرت بهم الدروب نحو بيوتهم، فرحين بما آتاهم الله، ويستبشرون. وهذا أوان أوبتهم.

سجا الليل...

والرجال الشعراء يبعثون في كل أمةٍ كما يبعث الأنبياء.

www.alkottob.com

وهذا أوان وحيهم، تتنزل عليهم الكلمات في كل حين
سجا الليل...
وفي البرية الخضراء راعٍ على فمه مزمار...
والنوق العصافير تهجع في المراح...
تمضغ السكون في استجرار.
ولقد يبدد الصمت أحياناً، صوت ناقةٍ تحنُّ في شجن..
يحاورها في الطرف القصي حوار.
وهذا أوان الحنين، والناي المعذّب في القفار، هذا أوان الحنين.
سجا الليل...
والنساء الضامرات يمرحن في بستاننا الشعري كالجديان...
الزاريات بنا من قمم الرجولة...
الهاويات بنا من أوج الفحولة...
إلى المشهد الليلي.
وهذا أوان البطولة، هذا أوان البطولة.
سجا الليل....
ووجوه النسوة اللائي كُنَّ بالأمس عابرات...
خلّفن في أرواحنا الغبار والصدأ..
وضربن في الأرض سعياً، وهنَّ الضاربات
يتركن في آفاق الرجال ذكرى
"فهنا كان وجه جميلة راحلة
يا لقلبي من نساءٍ راحلات
وذات عجزٍ تمشي على استحياء

www.alkottob.com

فكأنها الماء يمشي على الماء"

وهذا أوان الذكرى.

سجى الليل..

وفي أزقة الليل يتجول العشاق الساهرون، ضربوا موعداً لحبيبة لا يعرفونها وهي تجهل من يكونون.

يشافهون الأنوار في معاقل النجوم، والظلال إذ تبدو لوحشتهم يخالونها من وجدهم طيف إنسان.

والشموس السابحات في المجرات البعيدة، قاب قوسين أو أدنى من قلوبهم فهم لها ناظرون، وهذا أوان القربى.

وقال الهاتف العلوي... الليل يسجو وتهدأ الأرواح.

والصبح يدنو، إني أسمع لتنفسه كما أسمعك الآن..

الصبح يدنو، ولسوف يغمر الدنيا بفيضه الإلهي الرهيب...

ولسوف يمشي متنفساً على تلك الجبال، وتلك الروابي، وهاتيك البطاح.

في الأحلام، وما الرؤى، إن كنتم للرؤى تعبرون...

كذلك كان في البدء آدم...

وأنتم لآدم وارثون.

قال ما تظن أنك فاعلٌ باليراع؟

قلت عبثاً أوقد النار في شتاء العيون الذابلات..

وعبثاً أنفخ فيها من روحي، وعبثاً أخاطبها بلغة القرآن..

وأنا الذي على فمه تشتعل الكلمات.

قال وإذن.. قل لرجال المدينة المترفين، والنساء الفاتنات

www.alkottob.com

المائعات قل للبنين وللبنات.

تذكروا إذا التقيتم في مجالسكم، على شواطئ البحر أو بين البساتين

أو في الفنادق حيث تحلو السهرات....

تذكروا وأنتم في أوج نشوتكم، ما بين قعقعة الكؤوس، وصليل الحليِّ على أيادٍ مشرعات، والنساء الطافحات بالبشر والمرح، اللواتي يضحكن من نكات الشاربين وهي أسخف النكات..

تذكروا وأنتم يومئذٍ كالطواويس، تتبارون بالخيلاء وسط إناثكم، مثل ديكٍ حبشيٍ على قطيعٍ من دجاجات، يتآمر بعضكم على بعض، والخيانات تلو الخيانات...

تذكروا وأنتم تخاصرون إناثكم، وقد أرحن أذرعهنَّ على أكتافكم، وأرحتم سواعدكم على أعجازهن المائسات...

والموسيقى تستبي الأرواح في الليل، والبيانو العذّب يفصل ألحاناً للراقصين والراقصات، للساهرين والساهرات.

تذكروا وأنتم حينئذٍ تجلسون إلى الموائد التي يستحي منها الجالسون على رصيف الحياة، البائتون على الطوى، وأطفالهم كالجراء الصغيرة ما بين الزبالة والنفايات..

يبحثون في كناستكم أيها الأثرياء، يبحثون في فضلاتكم أيها الأغنياء عن فتاتٍ ربما أمدهم ببعض الحياة..

تذكروا وأنتم تنهشون اللحم والثريد، وألوان الطعام من جنسٍ مشتهى والشراب الفاخر يسعى به الولدان بينكم كسعاة البريد.

تذكروا وأنتم يومئذٍ في أوج شراهتكم، لا تشبعون ولا ترتوون، فبطونكم كجهنم، كلما قيل لها هل امتلأت.. تقول هل من مزيد..

تذكروا... أن في مدينتكم، في مكانٍ ما بجوار قصوركم....

أطفالاً عراة، آبائهم جائعون، وأمهاتهم جائعات...

www.alkottob.com

لايشربون النبيذ الذي يعبر البحار، لا ولم يجلسوا في بهو الفنادق العليا ليستمتعوا كما الطيور بغابات الصنوبر والسرو على سفوح الجبال، وضفاف البحيرات...

لا يغنون ولا يرقصون، ولا يسكرون فينتشون، لا ولم يعرفوا هاتيك الملذات...

تذكروا يا أيها الأغنياء...

تذكروا البائسين الذين لا يملكون ثمن اللقمة الصغيرة، أو ثمن الكساء والحذاء..

والمرضى على الأسرة يستغيثون (وارباه) وليس في جيوبهم ثمن الدواء.

تذكروا أيها السادة الأغنياء...

يا أيها النائمون على وسائد الريش، ومن حولهم ينتحب الفقراء.

يا أيها الذين يرمون إليهم بسخرية النظرات، إذ يكونون على الرصيف، وأنتم يومئذٍ خلف النوافذ الملونة، على مقاعد السيارات..

تنظرون إليهم وشفاهكم تمضغ أعقاب السجائر، وأياديكم تعابث عاهرةً بجواركم علمتها الأيام كيف تكون لافتةً من تلك اللافتات.

تذكروا أنكم ستموتون كأتعس الفقراء، بل كالدويبات الصغيرة

التي تدهسونها وأنتم في نشوة الحياة...

تذكروا أنكم تموتون كما يموتون، ولسوف تُدفنون كما يُدفنون،

بالتراب الذي تكبرتم عليه وغركم بالله الغرور

تذكروا...

يومئذٍ لا ينفع مالٌ ولا بنون.

* * *

www.alkottob.com

قلت وما الموت...؟

قال يا صاحب الحقيبة...، إنك ميت والناس ميتون، فأحبوا موتكم

إذ ليس موتكم هو العدم كما تتوهمون.

اعلم أن الناس لا يخافون من الموت، ولكنهم يخافون من الذي بعد الموت، ذاك الغموض الذي يجهدون في تصوره فلا يفلحون، ذاك الغيب المجهول الذي يخافونه. بميراث طفولتهم، وما ترسب في لا وعيهم من حكاية الأشباح والغيلان والعفاريت، ونواح النسوة اللائي يندبن في المآتم، وثيابهن السوداء والبيضاء التي فُصلت خصيصاً لتمثيل المآسي والفجائع والأحزان.

يا صاحب الحقيبة...

الناس إذ يقفون فجأةً أمام وجه الموت، وينظرون إلى القبور بشواهدها وصلبانها، يفتحون على عجلٍ كتاب حياتهم أمام أعينهم في الحياة الدنيا فيرون ما يرون من خير وشر وسعادةٍ وشقاء، وإذا بأعمارهم تبدو لهم مثل شريط سينمائي يمر بسرعةٍ مدهشة، وينظرون إلى فصول حياتهم تتعاقب على دولاب الحياة، أطفالاً فشباباً فكهولاً فشيوخاً ف....

وهنا يقفون مذهولين عند نهاية الشريط، وتلك هي القضية، البعض منهم يهز رأسه بعنف، ويغرق نفسه في لجة الحياة حتى الغفلة، ويوهم نفسه بالنسيان خوفاً من مجرد التذكر، ويعلل نفسه بالمال والزوجة والولد، ويبالغ في الحب وطلب الحب، فهو يطلب النجاة و لاسبيل إلى النجاة، ويطلب الخلود في الحياة الدنيا ولا سبيل إلى الخلود، فتراه يسعى في كل السبل، وكذلك يسرف في الحياة.

وبعضهم يمعن في الخوف من الموت حتى الهذيان والمرض، وهذا هو عين الموت، بل قل العدم.

www.alkottob.com

هؤلاء هم البؤساء حقاً، لا يتأملون ولا يتفكرون، ولا ينتصحون فيرشدون.

يغرقون نفوسهم في الخمر والشراب طلباً للراحة النفسية وهم واهمون.

ينهشون في أجسادهم ويأكلون من أكبادهم، ويسخرون من كل ما لا يوافق سفالة أغراضهم إمعاناً في الغياب كل الغياب وصولاً إلى آخر الغيبوبة.

تسألهم فيقولون هو الملل، هو الضجر، هو الإحساس بلا جدوى الحياة، هي الكآبة العمياء والإحساس بالفجيعة والفشل.

ولكنهم في دواخل نفوسهم لا يعنون سوى الخوف من الموت.

أجل... هل تظن أن الذين يُقدمون على الانتحار لا يخافون من الموت

كلا يا صاحب الحقيبة، فهم أكثر الناس خوفاً من هذا المجهول على حد علمهم فمن تضخم هذا الرعب في نفوسهم، وبشاعة إحساسهم بالعجز واليأس تجاه هذا الغريب والشبح الذي يتربص بهم، إحساسهم بالعجز هذا، هو نفسه ما يدفعهم بقوة عمياء لا واعية إلى الوقوع في صميم الموت، اختصاراً للطريق المعبد بالعذابات، وتوفيراً للمطاردة والفرار الذي لا يجدي، وكذلك يفعلون.

وأما البعض منهم، وهم المؤمنون العارفون، الذين يعملون لدنياهم وعيونهم تهتك غشاوة العدم إلى حيث يرحلون فيحلون بسلام آمنين.

أولئك الذين يستمدون حياتهم من نور الله، فلا يخافون ولا يسأمون، في شعاب الزمان يدرجون لرفد الحياة بالفعل النبيل، يسعون لعمارة الدنيا، مع علمهم أنهم لم يخلقوا لأجلها وإنما هي التي خلقت من أجلهم.

تجدهم حيثما تذهب، إن كنت لابد ذاهب لأماكن الشرف.

www.alkottob.com

في الحقول البعيدة يحرثون ويزرعون، وفي ساحات الوغى والزود عن الكرامة والشرف، يتدافعون تدافع الأبطال يقاتلون عدوهم عدو الله والوطن فينتصرون بإذن الله، ومنهم من يستشهدون سلامٌ عليهم... سلامٌ على الشهداء إن هم إلا أحياءً عند ربهم يرزقون.

هؤلاء هم دائماً، تجدهم حيثما تطلبهم، في الطرقات يعبدونها لراحة الناس، في الجسور والكباري يمدونها للتواصل، في المصانع ينتجون ويصنعون، في المشافي والمختبرات، في المدارس والجامعات، وفي البواخر الكبيرة والطائرات، في المراعي الجميلة يسرحون ويمرحون، وفي بيوتهم في المدائن والقرى يسكنون لأزواجهم، فمنهم الساكنون.

ياصاحب الحقيبة...

ما الموت إلا سبيلاً للحياة، ما الموت إلا خلاصاً وانعتاقاً لهذه الروح من قوانينكم هذي... قوانين التراب، من سجون أبدانكم هذي.. سجون الألم والعذاب.. فالموت مطلب الروح... أجل الموت مطلب الروح وعدو الجسد.

لربما تموت يا صاحب الحقيبة على كوكب الأرض، أو على سطح القمر.

فأنت ميت على كل حال، وأنت حي في كل حال.

وقيل خُلقتُ لأنظر إليك من بعيد، وأنا شحاذ المدينة، أقف في الركن المعتم من الكون.

ثيابي لاتدفع عني الزمهرير والصقيع، ولا تحول بيني وبين لهيب الشمس.

لا أحمل في جيوبي صكاً بمليمٍ أو بمليون، لا ولا أعرف كيف تجد السبيل إلى جيوب الآخرين.

لكنني أعرف كيف أختلس إليك النظر، لذا أحمد الله كثيراً إذ خلقني فقيراً ولم يحرمني من نعمة البصر.

www.alkottob.com

فحيثما كنتِ أيتها البعيدة البعيدة، سأرنو إليك باسترسال عاطفيٍ رهيب.

فأنا أقرب إليك من كل الأقربين، الذين إلى جوارك يجلسون، ولأحاديثك العذبة ينصتون، وبعطرك الخمري يسكرون فينتشون ويعربدون، وإلى طفولة وجهك ينظرون، فتبتسمين ويبتسمون.

أنا أقرب إليك من هؤلاء جميعاً...

فهؤلاء زمرةٌ من النخاسين، بُعثوا من زمنٍ مظلمٍ مندثر، صَغُرتْ عيونهم وضاقت، فإذا الكل في اعتقادهم تجارة، قابلة للربح والخسارة.

فالقوم لايفقهون في الدنيا سوى البيع والشراء، فإذا بسطوا يداً للعطاء، بسطوا الأخرى لرد العطاء.

أو تظنين أنهم يعرفون معنى الشكر، أو تظنين أنهم يقيمون وزناً لحمدٍ أو ثناء...؟

لذا فهم لا يرونك إلا قطعةً من لحمٍ طري، فليس في شرعتهم شيء بلا ثمن، ذلك منطق السوق، وتلك سنة التجارة.

ولسوف يحسبون كم تساوي عيناك من الدراهم، ألا ما أشطرهم على العد والحساب.... وإن كانوا أبلد خلق الله أجمعين.

ولسوف يَزِنُونَ بَسْمَتُكِ بقدر معلوم، ولربما يبخلون، فالبخل في شرعتهم غير مذموم.

وللجيد الأتلع ثمن...

وللنهدين الأقرنين ثمن...

ولمحيط خصرك ثمن...

للشعر المستفيض، للشفتين، للكتفين، لليدين، للأنامل التي أُحْكِمَ صنعها من عند الله.

للرجلين ثمن..

www.alkottob.com

للردفين ثمن....

لكل ما خلق الله.

وقيل يخرج الشعر معجوناً بدماء العاشقين.

فلون الشعر أحمر، ولواؤه أحمر، وأرضه حمراء مثل كوكب المريخ.

وأنا ولد الصحراء، خرجت من باديتي وقومي، أبحثُ في زرقة عينيك يا حبيبتي عن ذلك الكلأ والماء.

عن تلك الينابيع الصافية التي سمعت بها، عن تلك البحيرات والغابات ولؤلؤ البحر.

إني أطلب الشتاء في عينيك يا حبيبتي، أطلبه جليداً يغطي البرية والجبال، أطلبه مطراً يتحدر به السحاب، فيهمي علينا، نحن والأرض تشتهي غفوة الخريف.

يا لعينيك يا حبيبتي ما أوسعهما، إني أطوف فيهما منذ ملايين السنين. إني أبحث عنهما قبل ولادتي، وبعد ولادتي، والخُطى تدفع الخُطَى، ولا زلتُ في بداية السنين.

إني أرى في عينيك يا حبيبتي جنات عدنٍ، وبساتين السماء والفردوس، والكوثر العذب وأنهار اللبن والعسل والخمر، والسندس الأخضر والياقوت والمرجان والاستبرق، والكأس التي مذابها الكافور والزنجبيل، والنور الذي يسعى، والرضى.

إني آنست في عينيك يا حبيبتي طفولتي تدرج عاريةً بين الخيام وبيوت الشعر، ورسوم الديار على التلال يعلوها السراب،
(فهنا كانت أمي توقد النار، وهنا كان أبي يقيم الصلاة، هنا كنا ننام أنا وأخي.. هذا مضجعنا، هنالك كان المُراح، وتلك الأوتاد التي ينخر فيها السوس كانت لبيت خالتي، وهنا كانت تلعب ليلى وهند وفاطمة وزينب، وهنا كان يقف محمود يعاتب أحمد ومن ذلك الجرف كان يقفز زيد وعمر وكليب وعنتر.

www.alkottob.com

وقيل هذا البدوي يمتطي بعيراً ويسأل في المدينة عن بعير...!!

ها هو يوقف سيدةً على قارعة الطريق، فيسألها عن حي بني الوبر، وخيمة سيدها قيس بن عاصم.

انظروا إليه... إنه لا يفهم كيف لا تعرف سيدها قيس بن عاصم المنقري...

ويستغرب كيف لم نسمع بأهل الوبر.

ترى... أين نام كل هذه السنين، ومن أي الكهوف أتى.

أفلا ينظرُ إلى الناطحات تسد نوافذ الهواء، وتنمو كالمرجان والسرطان في لجة البحر، وليس لها من أمر الله عاصم.

أو لم يستنشق رائحة البترول تفوح في أم القرى وكل العواصم، وقد نفد الهواء من صدورنا واحترقنا، إذ ليست الآبار آبار عاصم، والحي لم يعد لعاصم وإن كان شيخنا في الوزن (جاسم) جاثم.

وقيل أيا قومي ضيعتموني.. ضيعتموني والربع خالٍ أحن إلى ديار بكر بن وائل، أحن إلى عمتي ليلى وخالي وابن خالي، أحن إلى خيمة الشعر ونار القِرَى، والضيف أقبل ممتطياً حصاناً أبلجَ كالصبح عربياً كريماً شامخاً كالجبال، .... ذاك عمي.. هو عمي رادفاً بنت عمي، ألا فانزلا، وأنت يا هند دونك خباء أمي... وترجل أيا عمي الغالي.

أحن إلى الفجر يبعثني من نومي فأصحو.. وتلك عفراء وبثينة أمامي... وذات الخال والخلخال، والشعر منظوماً يمر بخاطري فأصبو...

أحن إلى ديار سلمى والصبابات البكر في الأعصر الخوالي.

أحن إلى ربعي.. بيد أن الربع خالِ.

وقيل نهارات الصحو التي تعقب أياماً من المطر، ونكهة الرمل الملبّد بعطر السحاب والرياح اللواقح التي تسري بعبير الأرض من

www.alkottob.com

الضفاف إلى الضفاف... تبعث العشاق من قبورهم، فيهرعون مستيقظين من البيات الشتوي الطويل.

وانتشروا فرحين بالنعيم والميلاد، وفي النوروز قيامة الحب، ويوم جزاء العاشقين.

والكون ينبوعاً يتفجر عذباً وزلالاً وسائغاً لذةً للشاربين، والحوريات العاشقات الناعمات المترفات الآنسات في كل واد ينتظرن القادمين، ويغتسلن في الينابيع الفتية، والأجساد في داخل الماء يومئذٍ كالبلّور، ثم وقد تعرضت لحرير الشمس مائساتٍ ضاحكاتٍ فهنَّ إذن قد ذُبنَ كالشمع في لجة النار والنور، ثم استوينَ على الظلال الرحيمة في الفلاة، حالماتٍ بقدوم الغائبين.

والرهوات البيض في تلك البحيرات، السابحات على الفضاء الواسع وفي القلوب كالنجوم وكالشموس وكالكواكب وكالمجرات.

الرهوات الفاتنات في تلك البقاع، يرتعينَ في الخمائل والروح، ويأكلنَ من الأعشاب والحشا، ويمرحن في الوديان والوجدان، فإذا ما استدارت الشمس للغياب في أقصى المجرات، وتوارى الحرير والنُّوار والسحر في جوف الظلمات. إذا ما أقبل الليل في تلك الفجاج، يستوحش من أشباحه العاشقون والعاشقات.

وقيل تُحبس الأنفاس حيناً من الدهر، والبحيرة تغفو ومن فوقها الدجى، وسنة النوم لا يقاومها جموح النهر، وكذلك الغابات، والأرخبيل وتلك الرُبى والبطاح، بيد أن الظلام ليس سرمدياً و الفجر يعقبه الصباح.

قلت أوصني.. إني أراك من الناصحين.

قال أو تحفظ وصيتي؟

قلت بلى وأقسم على ذلك.. والذي نفسي ونفسك بيده.

قال كفاك حمقاً و لاتقسم، فلقد أقسم الإنسان بربه ولربه ثم كفر.. فكيف تعاهدني وما أنا إلا أنت...، وإني لأظنك تخون عهدي.

www.alkottob.com

قلت لا والذي نفسي ونفسك بيده، أوصني فستجدني إن شاء الله من الحافظين.

قال كن أنت ولا تكن غيرك، فغيرك ليس أنت، وأنت لست غيرك.

كن أنت ولا تقتل نفسك في التشبه بالآخر، فذلك هو الانتحار، ذلك هو الموت.

كن كما خلقك الله، فأنت الفرد الفريد، وأنت الشخص الوحيد، فلقد خلق الله قبل مولدك آلاف الملايين من البشر، ولسوف يخلق بعد موتك آلاف الملايين من البشر، لكن واحداً لن يكون مثلك تماماً لامن قبل ولا من بعد، فأنت آية الله دلَّ بك على قدرته وسعة ملكه.... قل، فتبارك الله أحسن الخالقين.

كن نفسك يا صاحبي، فليس بوسعك أن تكون إلا أنت، ربما تتشابه الأشكال والصور، وربما تتلاقى الأخيلة والعواطف والأهازيج والأحلام والفِكَرْ، ربما وربما وربما... لكن ستظل نسيج وحدتك أيها الإنسان مدى الحياة ومدى الدهر. فخذ نفسك على فطرتها، واقنع بها كما وهبها الله لك بجمالها وعيوبها، فهي الهدية من الله، ولا يتذمر من هديته إلا الأحمق.

جاهد إن استطعت (وإنك لمستطيع) في التخلص من سوءات نفسك، فذلك هو الجهاد حقاً، وتجمل بتمثلك كافة القيم الإنسانية الفاضلة، وارحم وتعطف وتسامح، فأنت حقاً خليفة الله.

واطلب لنفسك مكاناً في ملكوت الله الكبير، ولا تقلل من شأن ذاتك ولا تبخس من قدر نفسك، فأنت أيها الإنسان ملك الأنواع، وقدرك عند الله كبير.

ولا تقل إني ضعيف ولست قوياً كفلان، القوة تكمن فيك، فجاهد لاكتشافها في أعماق أعماق نفسك، وتطوع لاستخراجها وتسخيرها لرفعتك، فلقد أوتيت ما لا يخطر لك على بال، فلا تكن جاهلاً بأمر نفسك، ولا تكن جاحداً بنعم الله عليك، فارفق بنفسك أيها الإنسان

www.alkottob.com

وأخرجها من الظلمات إلى النور.

ألا تعلم أنك أنت الحدث الفريد؟ ألا تعلم أن الأكوان بأسرها سُخَرت لخدمتك ألا تعلم أن الله جل شأنه أسجد ملائكته لك، أيها الإنسان إن لك شأناً خطيراً. أيها الإنسان تذكر قول ربك (إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)، فإلى متى تظل سادراً في غيك وجهلك بقدر نفسك.

فإلى متى يا صاحبي تبدد طاقاتك في الإكثار من التعاسة والقلق، وفي جوفك بلسمٌ لو عرفته، في جوفك إنسانٌ لو خبرته... لعجبت من نفسك كيف أنك ظللت تجهله كل هذه السنين وهو يصحبك.

فبادر بنفسك لنفسك، وعجل فإن الشباب يشيخ، والشيخوخة تفنى والعمر يندثر، والروح تعود لخالق الأرواح،

بادر ولا تقل غداً، فغداً يتربص بك، فتربص به أنت.

بادر... ولا تقل مللت، أو ضجرت، أو سئمت، فإنها من مفردات القنوط وقاموس الشقاء، ولا يصحبها إلا الفاشلون.

قلت أوصني كيف أعاشر امرأتي وأصحبها في الدنيا بمعروف؟

قال نسائكم بيوتكم التي فيها تسكنون، فأحسنوا إلى بيوتكم يحسن الله لكم.

نسائكم النار التي بها تصطلون في الشتاء، والظل الرحيم الذي فيه تنامون في الصيف، والجمال البهي الذي به تتباهون في الناس.

فأشعلوا مواقدكم لا تبردون، وأمدوا ظلالكم لا تُرمضون، وتزينوا بجمالكم لا تُبخسون.

نسائكم حدائق الليل التي فيها تهجعون، وقوارير العبير التي من عطرها تتنفسون، وأغمطة الحرير الموشي بتصاوير الملائكة الذين

www.alkottob.com

على نومكم يرفون، والوسائد العطشى لعرق الليل الطازج، وبكر الصبوات، والنزوات، والرغبات والشهوة المقموعة منذ آلاف السنين، والآهات، والشهقات وأوهام الطفولة عن الحب، ومخاوف البنين من البنات، وما كنتم تكتمون. نسائكم طيوف أنصافكم التي بها تبوحون بسرائر نفوسكم، وخلجات قلوبكم ونفائس حبكم، ونبل محتدكم، ومتاعب أعمالكم، ومخاوف ليلكم ونهاركم، نسائكم كرومكم التي منها تعصرون، وشهدكم الذي به تسكرون، وينبوعكم الذي فيه تغتسلون وتطهرون، وعينكم التي بها تروم، وصدركم الذي فيه تبكون وأمهاتكم اللائي بين أحضانهن تطمئنون، ونصف حياتكم التي فيها تعيشون وعنها تسألون، يوم يقوم الناس لرب العالمين. نسائكم قرة أعينكم، وبَهجة أحسنكم، فاتقوا الله في النساء، واستغفروا لذنوبكم.

قلت قد أوصيتني خيراً بامرأتي، فهلا أوصيت امرأتي بي خيراً وكيف تصحبني في الدنيا بمعروف.

قال أيتها المرأة، يا أيها الكائن الجميل والمثير، يا أيقونة السلام والمحبة، يا فتنة الكبير والصغير، يا واحة الأنوار والظلال والألوان والعبير، أيتها الأنثى.. يا لمسة الحنان ولذعة الحرير، أيتها الأنثى.... يا أيها الكائن الخطير. إن استطعت أن تكوني ساحرةً وفاتنةً فكوني، أو استطعتِ أن تكوني عاقلةً وماكرةً وشاطرةً فلا تتريثين.

ولكن هل لي أن أسدي لك نصحاً طيباً، وإني لناصحٌ أمين.

أيتها الصاحبة... أعلم أن ما يعجبك في الرجال كثير كثير، ولكن خمسةً منهم على أحسن تقدير هم أحب الرجال إلى قلبك العجيب.

رجلاً ذكياً بغير جمال يقول لك... أنت أجمل من في الدنيا.

ورجلاً طفولي الملامح يكاد يخجل من ظله كلما رآك اضطرب، وكالحمل الوديع، يرنو إليك من بعيد، ولكنه وسيمٌ وآسر.

ورجلاً قوياً، غليظ الملامح، بارز العضلات، وحاد البصر ويرنو

www.alkottob.com

إليك من علٍ كالعقاب، ولكنه لا يقول أحبك بل أريدك، وشتان ما بين الحب و (الريد) ورجلاً تختلج عيناه بطيبة مريحة، يحدثك عن عينيك ما نوعهما، وعن علاقة وجهك بلوحات بيكاسو، ثم يأسرك وينشد الشعر

ورجلاً أدخل تحت جلدته ومعطفه السميك كل هؤلاء الأربعة، ومشى إليك كالملاك تارةً وكالشيطان تارةً أخرى، فأحببت فيه التناقضات، وليس كالمرأة مخلوق يسحره الغموض.

أيتها المرأة النبيلة....

أصاب منك الرجل الأول مقتلاً فأحسست تجاهه بالأنوثة.

ولامس فيك الرجل الثاني عاطفة الأمومة فأحسست تجاهه بالأمومة ووضع الرجل الثالث يده على طفولتك المندسة كالعصفور، فأحسست تجاهه بالبنوة.

أما رابع الرجال، فوحده من شعرت معه بشفافية الحب، وصافي المودة. وأما خامسهم فلقد أضرم فيك أمشاجاً من مشاعر متفرقة.

ألا هل أدلك على خير الرجال وهم كثيرون في كل حال، وما الخمسة إلا مثال.

رجل مازج التقوى بروحه فصار تقياً، وإن كان أقلهم علماً، وأعسرهم حالاً، وأدناهم مكانة، وأفقرهم وجاهة وشكلاً.

إذا أحبك أخلصك الحب فصدق، وإذا خلاك أنصفك فقضى، إذا أولدك أحسن التربية والنشأة، وإذا أصاب منك عقماً دعا إلى الله وتضرع، يصونك في الحضور والغياب، ولا يخونك في معشر الصحاب، فهو الأبر في أهله، المخلص في حبه، الخلوق في عشرته، الكامل في حق زوجته الشريك في بيته، المعتذر عن غلطته، الضاحك في وجه حبيبته، الصادق في غيبته وأوبته، المتسامح في حقه، العطوف على نسله، الشفوق على حرمانه المانع لعرضه، الغيور على بيته وأهله، الزوج والأب والأخ والابن الحنون مع زوجته.

www.alkottob.com

هل أحدثك يا صاحبتي بشأن الرجال مع النساء... وإذن فاعلمي أن أغلب الرجال يتزلفون ويتقربون إلى النساء العاريات اللواتي يتحرشن بفحولتهم، حتى إذا قضوا منهنَّ وطراً قرفوا منهنَّ ومن أنفسهم، فتخلصوا منهنَّ كما يتخلص المرء من زبالته التي أزكمت أنفه بالعفن.

(التعفُّن)، ذلك هو الإحساس بالضبط الذي يعقب كل مغامرةٍ طائشة تمت بين ذكرٍ وأنثى خارج الروابط المقدسة.

فاعلمي إذن أن الفضيلة سنة الله الذي فطر الناس عليها، فالرجل حتى وهو يتسفل في التجارب الفاحشة، لا يطلب لنفسه إلا الشريكة الفاضلة التي لا تخونه أبداً وكذلك المرأة، مهما تدنت وأمعنت في التدني، لا تحلم إلا بفارسها الفاضل الذي سيخف إليها يوماً، ممتطياً حصانه الأبجر، فيرفعها إليه من بؤس واقعها المشين.

كوني كما تشائين أيتها المرأة، لكن اعلمي أن جسدك الجميل الغض، الذي طالما فتن الرجال، وجمال وجهك الشهي البهي الذي أفتن في وصفه الشعراء، وصفاء عينيك الذي يشبه ماء الينابيع، ودقة خصرك الذي يتأرجح من تحته ردفٌ ثقيل، وطول شعرك، وامتلاء شفتيك، ونحول جسمك، ونعومة كفيك وملاسة خديك، وارتفاع نهديك عن سطح البحر، كل هذا سوف يذوب ويذبل كما تذبل الوردة العطرة التي كانت متفتحة بالأمس القريب.

وإذن فالمرأة الغبية فقط هي التي تشيح بوجهها عن الجمال الأبقى، وتتمسك بالجمال الذابل، المرأة الغبية فقط هي التي تخسر نفسها بثمنٍ رخيص في معركة الحياة فاربحي نفسك أيتها المرأة، وكوني سيدةً لها أكثر من جمال واحد، كوني ذات جسدٍ جميل وروحٍ أجمل، كوني جميلةً في الظاهر وجميلةً في الباطن.

كوني ذات صورةٍ وتصور، بذا أنت السيدة النبيلة، والمرأة الجميلة.

قلت زدني...

www.alkottob.com

قال عش بأذنك لا بفمك، وتكلم، ولكن حيث الكلام هو الفيصل وكن منصتاً، وقدم سمعك على بصرك ولسانك كما قدمه الله، واصغ فإن السامعين وحدهم من يستطيعون الكلام عند لزوم الكلام، ولا تثرثر، فإن الثرثرة مضيعة للوقت، وإسرافاً وإتلافاً لنعمة الكلام وهو على ذلك سفه وقلة عقلٍ لا تليق بمن علم خطر اللسان وسطوة البيان.

والسامع يحمد في الناس، على عكس الذي يسرف في الكلام، فالناس لا يحبون إلا من يسمع لهم، ويصغي بانتباهٍ لأحاديثهم.

فكن سامعاً حيثما كنت، واصغِ لمن يحدثك كائناً من كان، تكن عنده أخلص الأصدقاء.

واترك لمحدثك البوح بما يشاء ولا تقاطعه، فإنك إن فعلت ذلك أرضيته ولربما التقطت من حديثه عبارةً أو جملة أو معنىً أو تجربةً تساعدك في حياتك، وتعلم الحكمة من كل شيء، وكن على ثقةٍ بأن من يتتلمذ على الآخرين ويظهر لهم حسن التواضع والسلوك، سرعان ما يتجاوزهم وقد يعلو عليهم. ولا عجب في ذلك، فالذي يتواضع لله وما خلق الله، سرعان ما يرفعه الله. ولا يغرنك الغرور فتتكبر، فإني وجدت المتكبرين أبلد خلق الله، فهم أقوياء في الظاهر، ضعفاء في الحقيقة، في صلفهم فما تكبرهم إلا نوعاً من أنواع الدفاع المبكر ضد خطر مجهول يتوهمونه في كل ساعة.

فالمتكبرون والمجرمون الذين يلحقون الأذى بالناس دونما سبب واضح، هم في الحقيقة مرضى وأحوج إلى العلاج من مريض السرطان، ذلك أنهم أناسٌ تضخم الخوف في نفوسهم حتى تحول إلى ظنٍ مبهم بعدائية الآخرين لهم، ولذلك فهم يتمترسون خلف قوتهم المزيفة، ويبادرون بالأذى، تحسباً لوقوع الأذى فاستغفر لذنبك يا هذا، وقل ربي أحيني متواضعاً وأمتني متواضعاً وابعثني يوم القيامة بين عبادك المتواضعين المؤمنين.

وقل ربي احيني سامعاً وأمتني سامعاً، وعلمني، إنك أنت العليم.

أيها الصاحب.....

www.alkottob.com

إني أنصحك بطلب العلم من كل شيء، حتى من الحجر الأخرس، فهو في الحقيقة ليس أخرسَ كما تظن.

وتريث فيما تقرأ وتدبر، فإن الكلمات تحجب المعاني ولا يقدر على كشفها إلا من أوتي صبراً على مقارعة الهوى.

واطلب الحكمة فيما تسمع أو تقرأ أو تبصر، فمن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً.

وحاكم نفسك في كل لحظة وخلصها من آفة الجهل وجرثومة اللا علم فليس كالجهل مرضَ عضال يفتك بالإنسان، فهو لعمري أخطر من مرض "الإيدز".

وليس كالعلم عافية ينعم بها الإنسان، فلو دري الذين يعيشون كالأشباح في ظلمات الجهل وعدم المعرفة، خطورة حالهم التي هم فيها لخرجوا يجأرون إلى الله ويتعبدون في طلب العلم.

وقل ربي زدني علماً، ربي أخرجني من الظلمات إلى النور.

وليس كالعلم نوراً، والله نور السموات والأرض.

قلت زدني

قال وإذا تكلمت، فتكلم بخشوع، واخفض من صوتك، وانظر في عين من تحدثه، وتلطف في الكلام فإنه يضر وينفع، فرب جاهلٍ تتحول الكلمات على لسانه كطلقات الرصاص، يُردي بها الآخرين وهو لايعلم. ورب عارفٍ يجعل من كلماته البلسم الشافي يزيل به أوجاع الآخرين. وإذا مشيت فانظر إلى موضع قدميك، ولا تكن مثل أولئك الحمقى الذين يمشون وهم يدورون بأعينهم في كل الجهات، فيرون مالا يحق لهم أن يروا.

ولا تقحم نفسك فيما لا يعنيك من أمور الناس، وانفق وقتك في إصلاح عيوبك إن كنت لابد مصلح، وتجنب ما استطعت الخوض في أحاجي الناس فإنك إن فعلت ذلك، خليقٌ بك أن تحسب في زمرة الجهلاء والسفهاء الذين لا يشغلهم في دنياهم سوى الآخرين، فكن

www.alkottob.com

مشغولاً بنفسك لا بالناس. ولا تعترض سبيل الآخرين إلا بما أمرك الله، واعرض لنفسك بالحساب إن كنت لابد معترض، وتذكر أن الله خالقك وخالقهم قد أرجأ محاسبة خلقه إلى أجلٍ يعلمه هو، فاتقِ الله في خلق الله، وتجنب أن تخوض فيما ليس لك به علم، وقل ربي زدني علماً.

***

لكن الليل يلتهم أنفاسي، وعاصفة الرغائب الهوجاء تقتلع قلبي من جذوره، فتلقي به في الجحيم الليلي المستعر.

أنا محض دمٍ يتخلى عن لونه وملوحته في كل ساعة، ليعود حتماً إلى الماء. جسدي يتحلل من فرط الاحتراق، وأنفاسي تضيق بسجنها داخل القفص، وروحي تهم بانطلاقٍ على إثره انطلاق.

كالهباء الذريِّ أنا... أموت منطفئاً على هامش الكواكب.

أتضخم بالشوق حتى ما تكاد تحملني قدماي، والجمال المشهدي يفتك بي فتكاً أليماً لا هوادة فيه، حتى لأكاد أعصب بصري وأشد على قلبي فلا أرى أني أتزحلق على مرآةٍ بحجم الكون، أرنوا إليها فلا أراني إلا مترنحاً على وشك السقوط، أو ساقطاً يتعثر في القيام، لكنني أمشي وأرقص نحو الأمام، لا مشفقاً على نفسي ولا ناقماً عليها، إنني أتزحلق بمنتهى الحياد. وهذا الهواء من حولي أتنفسه بعمق، وأعب بشبقٍ روائح البرتقال والليمون والنعناع، لكن ظمأي لا يرتوي ولو أهرقت في جوفي الفرات والنيل. أنا سفر المتاهة والظمأ، وصحراء السراب على حافة الكون، فمن يقرأني فليتحوط بجدولٍ من ماء دجلة.

أنا البدوي الذي جاء يتسكع في محطة القطار، فلما أعجبه وهو يعج بالذاهبين والذاهبات، والراكبين والراكبات، تسلق مندفعاً بينهم، ممسكاً جلبابه الطويل بأسنانه، ثم غاب في زحمة المتاع والناس، وأطلقت صافرة القطار إيذاناً ببداية السفر.

قال إذا استطعت أن تطوف حول المجرات على بساطٍ من الريح فافعل، فالحالمون هم ورثة العلم، والعلم مفتاح المعجزات وتمرس بترويض عقلك كل يوم، وكابده ولا تستسلم لمغريات الراحة وعبثية

www.alkottob.com

الجهل، فإنه متى ما أتاك طائعاً، واسلس لك القياد، انفتحت في وجهك سبل الحياة، وانهتكت أمامك بعض أسرار اللانهاية. فأنت إذن بدأت تعرج نحو السماء ولربما تصل.

الإنسان لا يولد مرة واحدة، بل ثلاث مرات، مرة عندما يولد من رحم أمه ويبعث من الغيب إلى الحياة، ومرة عندما يخرج من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة، ومرة عندما يموت.

واكدح، فإن أعمال الكادحين لا تضيع، وإن توهموا غير ذلك إذ ليست الأعمال شريان الحياة فحسب، ولكنها أكبر من ذلك بكثير، ذلك أن لكل عملٍ مهما صغر أو كبر اتصالاً كلياً بجوهر الإبداع، فنحن لا نكون مبدعين حقاً إلا بالعمل، وكل الأعمال سواء من حيث المحصلة النهائية على سعة الكون، فالعسس أو النواطير الذين يعملون في حراسة الضياع والبساتين، لا يقلون خطراً وشأناً عن منصب الأمين العام للأمم المتحدة مثلاً.

كل الوظائف مهما صغرت أو كبرت تتساوى في محصلتها النهائية وهي مهمة وأساسية كمثل الخلايا والأعضاء لجسد الكائن الحي، فربما لايموت الإنسان لأن كليته اليمنى أو اليسرى تعطلت، وكذلك هي الحال إذ بتر ساعده الأيمن أو الأيسر، أو كان ذا عينٍ أو رجلٍ واحدة، ولكنه في كل الحالات لا يحسب كامل الأعضاء.

قلت أوصني كيف أعيش حراً؟

قال ما خُلق الإنسان إلا ليكون حراً، ذلك أن في أعماق نفسك منطقة حراماً، لا تطالها يد الغاصبين، ولا تنقاد أبداً لحبل العبودية. فأنت حر، ولو كره الذين يريدون لك العبودية، وحريتك من عند الله لا يمن بها أحدٌ عليك.

فانظر إلى نفسك يا هذا، وتأمل كيف أحكم صنعها الله، فهي لا تفصح لأحدٍ عن ماهيتها، فهي مستودع الأسرار، والجواهر المكنون، وطلسم الطلاسم، وشاشة التجلي.

ليس ثمة من يجرؤ على القفز من فوق حصونها، فهي آية الله،

www.alkottob.com

ولا تشهد إلا له وحده بالألوهية، ومطلق الربوبية.

فاغبط نفسك على ذلك، وجاهر بحريتك و لاتخشَ إلا الله، ولكن تذكر وأنت تمجد الحرية، أنك لست حراً إلا بمقدار ما أنت مسؤول. لست حراً إلا بمقدار فهمك ووعيك لماهية الحرية.

فأنت حر، مادمت تخدم بحريتك قيم الحق والعدل والجمال، فكن حراً لامن عبودية الآخر فحسب، ولكن من عبودية نقصك أيضاً، فانشد بحريتك الكمال، فهو السراط المستقيم.

وقل الحمد لله الذي خلقني حراً ولم يجعل لأحدٍ سلطاناً على نفسي إلا هو.

ربي أحيني حراً، وأمتني ميتة الأحرار الأبرار.

قلت أوصني كيف أكتب؟

قال لا تحرك لسانك بما ليس في قلبك، فذلك من ترف الثقافة، وترف الثقافة كالتجشؤ الذي يعقب الامتلاء والشبع، وهو ليس من الكتابة في شيء.

لا ولا تمتح من زبد البحر فتخط بيمينك مالا يبقى ولا ينفع الناس. بل كن كمن يضغط على جرحه بشدة فيظل ينزف إلى الرمق الأخير. أجل... فالكتابة حالة من حالات الموت.

ولا تسود صحائفك بالمداد المتخثر، بل حَبِّرها بالدماء الطازجة الحمراء، حتى إذا ما أخذت الحروف والكلمات تمسك برقاب بعضها وتشابكت تشابك النسيج في الكساء. قل لها ابتغي لك مكاناً في دولة العلم، فيومئذ تراها تسعى. وكن حطاباً قوي الهمة، ضع فأسك على كتفك وخذ حبلك بيدك، واقصد غابة اللغة العذراء، ثم احتطب ما طاب لك الاحتطاب. فإذا حزمت من لغة الحياة، ما تستعين به في شتاء الحياة، أوقد نارك على كل التلال، وفي تلك الدروب العفراء التي تمشي عليها قوافل الأجيال، وأضرم حطب اللغة، وكن علماً لا تخطئه العيون، أضرمها ناراً ونوراً يضيء عتمة الكون، وقل لحروفك وكلماتك

www.alkottob.com

اشتعلي وتأججي وتوهجي، ثم كوني برداً وسلاماً لكل العابرين.

***

لكن قلبي يتهشم ثم يحترق..

وأنا أنظر من بعيد، فيرجع بصري خاسئاً وهو حسير.

آه... يا لقسوة ذلك المنظر، فلو أنني وقد أبصرتها.. تلامس عيناي عينيها فتراني كما كنت دائماً أراها.

فلو أنني وقد تركت يدي ممدودةً في كل مكان، أجدها تقفز على كفي وتعزف على أصابعي، ثم ترتعش تلك الارتعاشات الأليمة.

لكنني وأنا ألهث من خلفها في كل الفجاج، أرتطم بالجدران تلو الجدران فأنكسر كالفخار القديم.

أتحشرج في لغتي، أتنفس من شجني، أتورم في بدني.

ولقد أبصرتها في كل مكان، حتى كأنما لا مكان، والكل واحد، حتى كأنما لا وجوه، والوجه واحد.

لكنني أتوجع كالحبلى، والمخاض عسير، والليل ما ينفك يلتهم البرايا، والساهرون في كل عشقٍ زادهم ينفد بعد حين.

والآهة اللهباء تخرج من رئتي، لكأنني أتنفس من قاع بركان، لكأنني أتكلم حين أبكي فأسد بِعَبراتي فراغات الوحشة والسكون، لكأنني أبدو ولا أبدو، وأكون ولا أكون.

إني لم أعد أحتمل البوح أكثر فعندما يبوح العاشق الكتوم، يزداد في قلبه الوجيب، ولم يزل معرضاً لسكته البوح حتى يكف عن الكلام أو يصبح في الغابرين.

قلت حدثني عن السعادة.

قال ستخرج من كوخك الحقير ذات يوم، ولسوف تسحبك الدروب التي تسحر من يمشي عليها، ويُفتن بما يرى.

www.alkottob.com

انظر إلى ذلك القصر ذي الشرفات العالية، يا لحجارته الضخمة الملساء، ترى منذا الذي ابتناه، وأي الأكف استطاعت قطع هذه الصخور الكبيرة. ومنذا الذي صفها وأعلاها حجراً فوق حجر، وصخرةً فوق صخرة، بل كيف استوت أعمدته الغليظة، وغرفاته وشرفاته الواسعة.

انظر... إنك لتخال أن جنياً ضخماً، كان يطير إلى تلك الجبال البعيدة عند آخر الدنيا، فيجمع حجارتها وصخورها على عجل، ثم ينقلب مسرعاً وينخرط في رصفها حجراً على حجر، حتى استوى لديه هذا الصرح الرهيب وتأمل نوافذه وأبوابه الثقيلة الضخمة، لكأنها السدود في مضايقِ الأنهار، وانظر إليه كيف يبدو لعينيك من بعيد، وهو يعتم أطراف السحاب، والضباب يلفه بأضوائه، فكأنه مبني على تلال الشفق.

وإذ ترنو إليه من مكانك البعيد، تراه يطل مزهواً بقامته على بحيرة واسعة الضفاف، ومن خلفه وأمامه تقوم بساتين الكروم والتين، مسيجةً بأشجار الصنوبر والسرو.

وانظر هؤلاء هم حراسه وخدمه وحشمه يروحون ويجيئون ممتلئين بغبطة المكان، ربما كان بعضهم يحمل أطباق الطعام والحلوى، وبعضهم يحمل مزهواً أوعية الخمر وكؤوس الشراب.

هل ترى المدعوين يملؤون المكان، يفترشون المروج الخضراء، ويدخلون عبر الأبواب والدهاليز الكثيرة، ثم يخرجون وهم جماعات يمسك بعضهم ببعض رجالهم ونسائهم، فاليوم يوم احتفال.

وارهف سمعك جيداً، هل تسمع، نعم إنها الموسيقى الحالمة تصدح في بهو القصر، وتصل إلى آذان السامعين من أمثالنا مختلطة بلغط الحاضرين والحاضرات الساهرين والساهرات الذين يعبثون تحت تأثير الإضاءة القوية المركزة، أجل تصل إلى آذاننا الموسيقى وكأنها أضغاث أحلام.

انظر إليهم، هاهم يتأبطون نسائهم جميعاً، ويرفعون كؤوسهم

www.alkottob.com

وهي طافحة بالشراب، يقرعونها بمرح فيما بينهم، ثم يشربون الأنخاب... والموسيقى تهمس في آذانهم بغواية، كأنها اللذة تغريهم بطلب المزيد، وتلك الإشعاعات من فوقهم تلون وجوه إناثهم فيتضرجن باحمرار واخضرار واصفرار، فينتشون على انتشائهم بالشراب، وهنا الإغراء سيد الموقف، والشهوة تستعر، والنار تتأجج في ضلوع الساهرين. فإذا الكل يطلب الآخر، والآخر يطلب الكل.

خذ نفساً عميقاً وألق بعينيك إلى حيث يرقصون ومن فوقهم تتراقص الأشجار والأضواء، يبارك لهوهم ذلك القصر الشامخ من ورائهم. تلك الحسناء الصغيرة ذات الستة عشر ربيعاً تبدو محمومة وهي تخاصر فتاها ذا الشعر المعقود، وتلك السيدة الوارفة كأنها من أشجار الأرز تقف في الركن البعيد ولكن أحدهم يحاول لفت انتباهها، وهي مشغولةً بآخر. أما هذه الصغيرة الحمراء كالألم، يا لفستانها القصير، ويا لشعرها الطويل، وخدها الأسيل، وقدها الجميل، إنها تبدو وهي ترقص بشغف كفراشة تحترق وتجاهد في الإفلات من ألسنة اللهب.

وتلك الغادة الفاتنة، وذلك الرجل الوسيم، وتلك وذاك وتلك..

إنهم جميعاً يرقصون، وهم فرحون، لكن أتراهم سعيدون؟؟؟.

قلت أوصني..

قال مباركٌ ابن السبيل، فخذ متاعك وارحل من الفلاة إلى الفلاة. ولا تبتئس يا صاحبي فسقف السماء يظلل آلاف الغرباء، والمصابيح الدنيا تضيء البوادي، وتآنس وحشة المسافرين والراحلين.

والجبال الشامخات على جوانب الدنيا، والتلال النافرات كالأمواج، ستحنو عليك مثل أمك، ولسوف تقص عليك فصلاً من فصول الغابرين. ودوح النخيل في كل صحراء، وتلك الغابات والبحيرات والينابيع البكر، ومراتع الأنعام في كل وادي.

فخذ متاعك يا صاحب الحقيبة وارحل، واغبط نفسك على وحدتك وابتهج لذلك، فأنت بغير وحدتك لا شيء.

www.alkottob.com

أنت لا شيء بغير حزنك، وآلامك، وأشجانك، ودموعك التي تهمي كالمطر.

أنت لا شيء بغير قلبك الذي وسع من لم يسعه شيء.

يا صاحب الحقيبة، ولدت وحيداً، وتعيش وحيداً، ولسوف تموت وحيداً على ظهر كوكبٍ في ملكوت الله الواسع.

□□□

www.alkottob.com

رقم الايداع

صاحب الحقيبة الحمراء : رواية / بلّه آدم باشر؛ اتحاد الكتاب العرب ، 1998- 100ص؛ 24سم.

1- 813.03 ب ا ش ص 2- العنوان 3 - باشر

ع-11/ 1999/2 **مكتبة الأسد**

❑

www.alkottob.com

هذا الكتاب

نص أدبي يمتلك خصوصية ، وروحة المدهشة من خلال إبحاره في عوالم العرفانية، والصوفية، والشفافية الآسرة للإنسان الذي تخلى عن سطوة المادية وضروراتها، وعن النرجسية ودروبها، والقناعة بالتفرد دون الآخرين.

"الحقيبة الحمراء " نص له روح المخاطبات، والطواسين احتفاء بالتراث العربي الأصيل، كما له رشاقة التعبير وجمالية احتفاء بأسرار اللغة ومقاصدها النبيلة.

نص جاذب للأرواح العطشى للتأمل، وللنفوس التي أتعبها الرهق والجولان في دنيا غدت بلا أبواب، بلا نوافذ أو أسيجة.

□

www.alkottob.com